رواية



خطوط الضعف

علاء خالد

خطوط الضعف

علاء خالد

"أيها الأحمق، الأسوأ قد مضى"

جابرييل جارثيا ماركيز

(الحب في زمن الكوليرا)

إلى يسرية جميعي، مجاهد،

المزروعي، سلوى،!إسلام...

في استراحة العلمين، أثناء رحلة الذهاب؛ ستجلس الفتاة الأجنبية التي وقفت خلفي في طابور التذاكر، وبالطبع كنت أتوقع جلوسها بجواري، ستجلس في مقعد مقابل لي في الاستراحة. ومن خلال الرحلة فكرت في أن أخرج كتاب "هنري ميللر" "مدار الجدي" وأتحدث معها حول إنسانية هنري ميللر، لأني سمعتها تتحدث العربية وتبتسم أيضا بالعربية لبائعة اللبان. وبالطبع سيكون حديثي معها خليطًا من العبارات الدقيقة التي أتقنها عن نفسي في العربية والعبارات المطلقة في الإنجليزية والتي تجعل الروح، متعمدة، تخبئ الغرض البسيط من الحوار، أثناء عودتها من دورة المياه، لاحظت خطا أسود على ذقنها.

٢

الشاب السيوي الذي جلس بجانبي، مكان الفتاة، شغلني عن متابعة هنري ميللر بروح صافية. شغلتني يده المليئة بالبثور، وطريقة هرشه. كان يعاني من مرض جلدي مستفحل، ولا شفاء منه، وينتقل بيديه من بقعة إلى أخرى، وكأنه لا يعرف الخريطة التي يتحرك بها المرض على جسده، ولا يعرف أي عضو سيصدر إليه الأمر لينهار. كل جسده يحاربه ولم تعد هناك بقع كثيرة تقاوم، جميعها استسلمت، إلا وجهه وعينيه الجميلتين، وحدهما تشيران لأماكن ولمشاعر لم تستسلم با لدا خل.

أنا أيضا أصبت" بالجرب" وطوال أسبوعين كنت أصب على القروح العميقة ماء ساخنًا حتى الغليان ليقتل هذا الميكروب الغيبي، الذي جعل لجسدي مجالاً فارغًا لا يقترب منه أحد في البيت والمدرسة.

لم أرغب في أن أبدل مقعدي، وعشت ساعات في مجال التهديد المباشر لهذا الشاب، وحذرا من السجائر المتبادلة ومن الكلمات المتبادلة، كأنها أيضا مصابة. عشت ساعات أفكر بأن أول شيء سأفعله عندما أصل الى سيوة هو أن أغسل الأماكن المكشوفة جيدا بالصابون. عندما وصلت لم أفعل هذا لأني نسيته، كان وجوده ليعبر عن قلق مؤقت انتابني أثناءالرحلة، ولم يجد مكانًا هشا، ليخرج إلى النور، سوى جسد هذا الشاب.

٣

الخوف هو القناع الجلدي " للمرض" الذي كنت أعاني منه. الخوف من فقد وامتلاك المرأة، وكل ما هو متوارث من حصيلة الأنوثة التي نمت حولي. الخوف الذي يضيق و-يتسع حسب المكان الذي ينتقل إليه، والغريزة التي تنتظره. الباب المفتوح الذي لن يخذله، والباب المغلق الذي سيستنزف رأسه، حتى يعود إلى أصله، وراء الأبواب، حيث الشخصية ما زالت نيئة في طور التكوين؛ حيث التماثيل المهشمة لسلالات من طبقتي.

كانت "الأنوثة" التي صادفتني، أو التي ولدت برغبة فيها وبمن يمثلها ! منبعا لطاقة هامة، فرحت بها قليلاً؛ طاقة تعدت الخلاص إلى المخاطرة الجميلة. وكانت أيضا منبعا لقهر هذه الطاقة ومعها تهبط "الشخصية" وتتعقد معها الرغبات. لم تتعادل القوتان، كانت فترات القهر أقوى، أو أني ركزت عليها، وخزنتها في ذاكرتي،

قد يكون لأني راهنتُ بي وبمخيلتي في هذا المكان الغريزي، في وقت كان لابد أن لا تعقد أي مراهنات بيني وبين ذاتي، في وقت كان لابد لذاتي أن تكون مجهولة علي وليست مصدرا للألم؛ أن تكون منسية ضمن سياق يحملها عني.

لم أتخلص من الخوف لأني لم أحب نفسي بصورة جيدة. تعاملت معه كعدو ولم أتعامل معه كصديق لكل منا نصيب في الآخر. استخدمت القسوة مضطرا، كتابع من توابع القهر ومعاداة السلطة، وفي جزء منها كان يعيش تاريخ الرجل السلطوي، بمعني أنه سيظل سلطويا إلى الأبد وستظل جذوره خافية عنه. استخدمتها ضد مظاهر للشخصية كنت أكرهها في نفسي وأود لو أتخلص منها "بالموت"، مظاهر تكونت كغياب للمرأة أو حضورها كأصل أمومي مقدس؛ أو كحاجة مزمنة ليس لها القدرة على أن تتعدد وتتجزأ وتبطل مفعول تدميرها، برغبتها في أن تحافظ علي الإنسان الذي عاش داخلها وأصبحت جزء

من تكوينه. وأيضا استخدمتها ضد مظاهر للشخصية كنت أحبها في نفسي وكانت تدعم وجودي طوال سنوات الحاجة. وأيضا ضد الخوف الفطري لعائلتي وحسابها الدقيق للغد.

كأني اخترت القسوة كسلاح لن يبعث الأنوثة- المرأة إلا للتخلص منها اجتماعيا وإحيائها كأصل خفي، لتتساوى الكفتان في غياب المادة، الجسد الآخر، وجسدي أنا. كأني اخترت وعيا مفتوحا لقمعها مؤقتًا لأتفرغ على أي أسس تقوم شخصيتي؛ بوضوح لأتعامل مع الحاضر ومع الذي مازلت أملكه وأملك ماضيه من حسٍ وحركة وأصدقاء وعمل وصباحات ورموز حية.

كانت القسوة سلاحا للإزاحة، من أجل اكتساب أراض جديدة في الذات، وأيضا للإيمان بأراضٍ ناقصة. كانت سلاحا للتصنيف ولو لم يكن متوافقًا معي لنقل الصراع في غير أرضه.

كانت القسوة هي الجانب المعطل من الحب.

إلى أن أمارس القسوة بأصلها الوجودي، بأصلها الذي تكونت به، وسياقها الذي عاشت خلاله؛ كقسوة ذاتية: كحبٍ لم يكتمل من قبل.

٤

كنت ضديا،

كجدار، قريبا من الحياة

وأقرب من متخيلي

كجدار حاولت أن يكون أعمى

لتتسرب إليه الحياة من طاقة عمياء

بكلّها، بمذاق حار

كأعمى لابد أن يعبر كل الظلام وحده

حتى يصل إلى منبع الرائحة واللون

وأبوابٍ تهز ذيلها.

كجدار ستنموعليه فيما بعد

بعض الظلال الخضراء.

لا يمكن أن تكون جدارا

بدون أن تنتظر أن تستند على ظلٍ

بدون أن تهدم الثقوب

التي بقلبك.

سيتحرك الحلم.

٥

شاب سيوي آخر دخل في مجال مراقبتي في الأتوبيس، لا لشيء سوى أنه جلس في المقعد الشاغر بجوار الفتاة الأجنبية، ومن ساعتها كان غريمي بشكل ما. ما أسهل ما كنت أكتسب أعداء غيرحقيقيين وأيضا أصدقاء غير حقيقيين، في كل نشاطات حياتي. أخذت أترقب حركاته لأزيد المسافة بيني وبينه. لاحظت أسنانه البارزة وهو نائم وخيط من اللعاب يتدفق من بينها. لم أنبهه، ولم تنبهه الفتاة، وتركتُ اللعاب يأخذ مساره الطبيعي حتى يصل إلى قميصه.

عندما مات أبي، وبعد أن تأكد الطبيب من موته، بعد عدة محاولات للضغط على القلب بكلتا يديه، حتى أن جسده ، كان ينتفض بالقصور الذاتي، وشعرت أن قفصه الصدري يتحطم. حتى ولو لم يكن ميتًا سيموت من هذا الضغط العنيف. وبعد أن نظر الطبب إلى عيني مواسيا، لمحت خيطًا من اللعاب يتدفق من جانب فمه، فأسرعت

لأمسحه بالمنديل، كي لا يراه الطبيب في هذا الوضع الضعيف، حتى وهو ميت، وهو الوضع الأكثر ضعفًا.

الموت هو الجديد بأن تُختبر أمامه أي أخلاق جديدة، وأي ميت يسقط يجرد المكان حوله من اجتماعيته والأشخاص المحيطين وتتحول غرفة النوم إلى صحراء والبكاء جزء من الطبيعة، كأن له سطوة بدائية

ونصيبا دائما في البذرة التي خرجنا منها. وأي محاولة للأخلاق الجديدة؛ أن نعيد للموت، مرة أخرى، قسما كبيرا من اجتماعيته.

عند نزولي من الأتوبيس، بعد رحلة تدوم ثماني ساعات قضيتها وراء الزجاج وأمام صحراء وجمال شاردة تعبر طريق الأسفلت، وأمام مشهدٍ إضاءته ولغته الصامتة كانتا أكثر طنينًا من الحديت الذي دار بين فتاتين سيويتين جلستا أمامي وتكلمتا عن طفولة أخرى ومشهد آخر إضاءته ما زالت طبيعية ؛ ومن حديث استمر طويلاً بين شاب ملتحٍ وآخر فرنسي حول ا والإيمان والإسلام، ومن الحديث الذي دار بين قدمي وقدم* روبيكا* الباردة، والتي سأعرف اسمها فيما بعد، والاعتذارات المتكررة بينهما. وفي إحدى الاهتزازات القوية للأتوبيس ستنتقل قدمها تحتي مباشرة. وستبتسم وأنا أناولها الحذاء الفارغ. وعلى باب الأتوبيس كان هناك الصبية وكل منهم يحمل إعلانا بالإنجليزية باسم الفندق الذي يعمل به، وبمجرد أن رأوها التفوا حولها صائحين، كانت فرحة لرؤيتهم. لقد

جاءت من قبل للواحة. سرت وراء روبيكا وأقمت بفندق مواجه لفندقها، أرخص سعرا.

٧

أهم ما يميز ليل الواحة هو سيوة القديمة، مدينة كالمدن الدينية التي تحجرت فيها أجساد ساكنيها ومع الوقت محت معالم الأجساد وتحولت إلى شواهد صافية من الطمي. تكوين مرعب من الجدران المهدمة. كل جداركروح حية ولكن في صورتها البدائية.

٨

أخذت غرفة على سطح الفندق بجانب زوج وزوجة أجنبيين. دائما ما ألتفت للزوجات وأعتبرهن امتدادا لعالمي. الزوجة بالطبع جميلة وهذا ما يهمني لأنها ستوفر لي جيرة محملة بالتوقعات. سأحاول أن أتعرف عليهما، وأفضل لحظة للتعارف كانت في الصباح، عندما يكون كل شيء ما زال فى بدايته. ولكني لم أتوقع فقط Good Morning. أردت أن يكون الصباح جميلاً بحق حول مائدة ثلاثية نتبادل حولها الإفطار والذكريات الخاصة واللمسات التلقائية، فوق وأسفل المائدة.

الزوج متعجرف، أو هذه طبيعته، فقد رفض أن يترك جواز سفره لعامل الفندق ليأخذ منه البيانات، خوفًا على هويته أن تُفقد، هويته التي تعامل بها كبضاعة ثمينة، ببشرته البيضاء ولغته المتماسكة والتي لم أشعر بأي منطقة ضعيفة تتخللها. لم أتصوره باكيا.

صعدت إلى المدينة القديمة في الصباح، المدينة كلها كشواهد للموت فرق حاد بين بيت مهدم من الطوب وآخر من الطمي، الطمي يبعث حيوية مختزنة بداخله، وأي خال به سينقله إلى مجال إنساني في التشبيه، لقاسم مشترك من الحيوية ؛ سيربطه بإخفاق موازٍ للإنسان وخاصة الموت. البيوت متشابهة كبيت واحد تتخلله عدة طرقات تكونت صدفة ولحركات مقتصده تماما."

أحسست وأنا أسير فيها كأني أسير في متاهة، وبالفعل فقدت الطريق الذي صعدت منه، لولا رجل عجوزكان يجلس على باب بيته يداعب أحفاده. فالبيوت متشابهة ولا علامات تميز الطرق. بالتأكيد كانت هناك خريطة أخرى يعتمدون عليها، مدفونة في أقدامهم، وفي لا شعور العين للتمييز بين اختلافات طفيفة للغاية يين الطرق، والضوء والظل اللذين يسكنان بها، كالنحل الذي

لا يعود إلى بيته إلا تبعا لاتجاه الشمس. نوع من العمارة التي تعكس ضوء الشمس ولا تحصل عليه مباشرة. والنور في الطرق قديم ومتوازن كأنها ولدت به.

دخلت البيوت التي لم يجرفها السيل وتعثرت قدمي، في الظلام، بآثار من حياتهم، وفي بيت آخر لم يبقَ فيه إلا سقفه المصنوع من النخيل وبقايا جدران، عثرت على حجاب، عندما فتحته بقسوة شعرت كأني أنتهك العيون التي علقت عليه آمالها في أن يحفظ البيت من الأرواح الشريرة ومن السيول. كلمة "لا إله إلا ا " مكررة في الورقة الصفراء للحجاب، لقد تحولت، ضمن علاقتهم بالدين، إلى تشكيل: خليط بين قدسية الكلمة وقدسية الأشكال المجردة المستخدمة في السحر

١٠

.

الرجل العجوز الذي دلني على الطريق، لم يدلني بصوته، كانت حنجرته مثقوبة ومع كل كلمة تخرج منه يتحرك الثقب في رقبته مع صفير موحش يأتي من مكان عميق. طاردني الصفير وأنا أهبط من المدينة، يريد أن يصعد بالكلمات إلى فمه ولكنها لا تطاوعه، تتسرب من ثقب حنجرته الذي لم يعمل له حسابا. بداية الكلمة تخرج من حنجرته وما تبقى منها يخرج من فمه. هذا الثقب الجديد جعل الأحبال الصوتية تعيش في متاهة، في فوضى. والحديث لا

ينجز إلا بالإشارة، برغبته في التوصيل. أصبحت أصابعه هي الحنجرة الجديدة.

بعد هبوطي من سيوة القديمة إلى سيوة الجديدة، أول ما سيقابلني هو المقاهي، منتشره بشكل غير طبيعي بالقياس إلى مساحة السوق، وخالية في الصباح إلا من بعض الأجانب، ولكن كل الكراسي محجوزة لعمال وفلاحين من الصعيد، وسيأتون إليها في الليل.

الصباح الذي أتحدث عنه هو صباح ما بعد العاشرة، ولكن هناك صباحا آخر بداية من السابعة حيث تكون المقاهي والشوارع المحيطة بها مكانًا لتوزيع العمل، وعقد الاتفاقات بين المقاولين والعمال الصعا يدة.

لم تدخل المقاهي* سيوة* إلا بدخول الصعايدة كأصحاب ومريدين لها، وظلت بعيدة عن مجال تسلية أهل الواحة. فلم يوفر لهم شكل البناء في مدينتهم القديمة مكانًا متسعا للتسلية، بنيت من أجل السكن، أما وفرة الوقت فلها مكان آخر، في مزارع النخيل والزيتون، حيث كانوا

يقضون اليوم بكامله في الأرض ومعهم أكلهم وشربهم وأولادهم وأيضا نساؤهم.

النساء يمشين في الشارع بسرعة غريبة، كأن خروجهن هو الصدفة، عبء لابد من التخاص منه سريعا، وأغلبهن يتواجدن في الشوارع الجانبية للمصالح البسيطة، أما في الشوارع الرئيسية حيث السوق والمحال والمقاهي والمطاعم فوجودهم يقل ويكثر وجود الرجال، أمام البيوت والأرصفة والمحال، هناك مجالس دائمة وأحاديث لا تنتهي. يتحركون ببطء، بثقة لأنه عالمهم. كأنهم فوجئوا بمساحات أخرى غير المزارع، وبتسلية أخرى بعيدة عنها، وأصبح لديهم وفرة من الوقت بتشغيلهم للصعايدة ليحلوا مكانهم في الزراعة. أصبح وقتهم مترهلاً. جعل للروح إيقاعا بطيئًا تسرب إلى الكلام وحركة الأعضاء.

وأنا أغادر المقهى تركت لصاحبه الصعيدي بقشيشًا كبيرا. استغرب تصرفي لتأكده من أني لست سائحا، ولمحني بطرف عينيه، ولكنه أراد أن لا يجعلني

ألاحظ استغرابه، ليوهمني أنه أمر عادي يحدث كل يوم. ولكنه أدمن هذا الكرم، الذي تراجعت عنه سريعا بعد ذلك لرغبتي في إقامة علاقات طبيعية، وكل يوم كانت تختلف أسعار المشروبات وأدخل معه في حسابات خفيفة، لا أظهر فيها أي تشدد أو ضيق، فقط مناقشة حول الجمع والطرح.

١٢

الواحة جميلة في الصباح. الإيقاع هادئ وما يجري في السوق واضح، غير معقد، وأي موقف أو حركة تقع عليها العين يمكن أن تستنبطها، ليس لخبرة في العين، بل لبساطة الموقف، وللمسافات البعيدة بين كل جسد وآخر. أطفال يخرجون من المدرسة وعندما أقرب منهم الكاميرا يجرون، رجل عجوز يجلس أمام دكان حلاق، مزارع يجر عربته اليدوية ثم يتركها أمام محل بقالة، مجموعة من السياح يستأجرون دراجات من عمال الفندق للفسحة، نداءات من بعيد وسلامات متقطعة، بعض السياح يتناولون الإفطار في مطعم مقابل، ويمر عليهم أهل الواحة دون أن ينظروا إليهم. قطيع من الماعز يجري فوق الجبل بين الجدران المهدمة لسيوة القديمة.

قلت لزوجة الأجنبي اللذين يشغلان الحجرة المجاورة لي:

"Good Morning":

قلتها بابتسامه عنـدما شـاهدتني علـى المقهـى بجوارهما، وقلتها بلساني أمام حمام الفندق، كانت تعطـي وجهها لكل من يقابلها في الصباح، وردت علي بابتسـامة عذبة لم يأخذ منها النوم، أما زوجها الذي كـان مشـغولاً بقراءة مجلة وبشاي الصباح فقد تـرك الابتسـامة تمـر بسهولة بدون أن يقف في طريقها، حتى دون أن يلتفت إلي

الزوجات وتاريخ طويل لرصد الأنوثة من هذا الجانب وتضمينه بالجمال والأحلام، لأنهن كن الأقرب ويشغلن المسافة الحميمة التي لم تملأها فتاة من قبل بعطرها أو بسلام قوي على الخد أو اليد يخلف وراءه بعضا من طلاء الأظافر، الزوجات! كرغبة فاعلة، عصفورين بحجر واحد، ليست كمحرم ولكن كحياة ثقيلة بالرموز وبالسلطة وبالتحرر مخزنة بهذه الرغبة.

في محل للمشغولات اليدوية والتي تكثر في الواحة؟ قابلت "روبيكا" جالسة على الأرض وكعادتها بدون حذاء تتحدث مع صاحب المحل ونفس السيجارة التي تدخنها بترف وتتخلص من دخانها سريعا.

المحل يملكه أخوان سيويان يعملان بالتدريس، وكما قال لي الأخ الأكبر أنهما افتتحاه من أجل أن يحافظا على تراث سيوة من الزوال ومن أيدي الغرباء. يشتريان من الأهالي مشغولاتهم وما يحتفظون به من تراث نادر ثم يبيعانه للأجانب وللأثرياء القادمين من القاهرة، مقابل هامش ربح بسيط لا يدخلانه جيوبهم ولكن لشراء التراث الأكثر ندرة ليضعاه في مكان بارز بالمحل وعليه عبارة

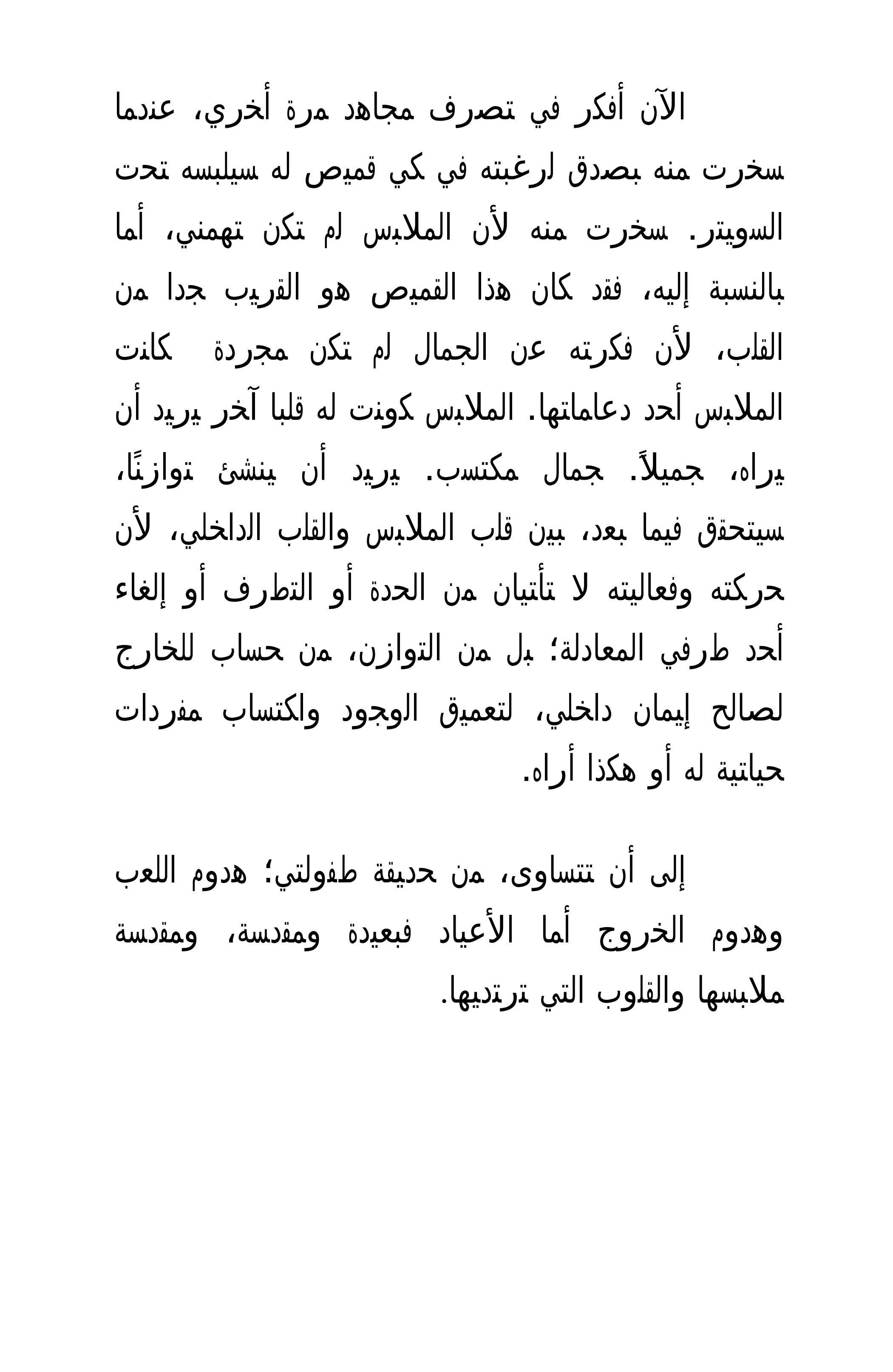
"Not for sale"في حديث صاحب المحل حِس بالمسئولية حاول أن يسقط منه رغبته في الكسب والتجارة. وفي الطرق الجانبية، بعيدا عن المحلات، كان يخرج علينا الأطفال ويعرضون تراثهم اليومي للبيع بأسعار بسيطة.

وفي إحدي المراجين، والتي تصنع من جريد النخل وتستخدم لحفظ الخبز. وجدت بقايا خبز طري وأم الفتاة تنتظر النتيجة من وراء الشباك. تخيلت مائدة الطعام.

أغلب المشغولات من صنع النساء، أدوات الطعام والزينة والملابس، الجماد مرتبط بفضاء سري يتكون حول النساء وممارستهن للحياة اليومية.

الملابس الواسعة التي ترتديها" روبيكا" دائما، كأن آخرين يعيشون معها داخل هذه الملابس وتحملهم أينما ذهبت، أو آخرين منتظرين سيكون لهم هواء بالقرب منها، مثل علاقتها بصاحب محل المشغولات والذي تقضي عنده أغلب وقتها، وأنه لمس قدمها الباردة كثيرا. ليس لها علاقة جيدة بالتدخين، السيجارة هي الصديق المؤقت تحمله معها لوحدتها، دعامة تقوي بها عمودها الفقري.

شاهدت كثيرين لكل منهم عنصر تماسك خارجي؛ النظارة السوداء، القميص الضيق، البنطلون المكوي بعناية فائقة. أشعر أن عمودهم الفقري أكثر انتصابا في حضور هذه الدعامات. الملابس بمرور الوقت تصبح علامة من علامات الروح، وكما أن الروح هدف للتغيير، فالملابس ستكون أيضا هدفاً.



الآن أفكر في تصرف مجاهد مرة أخري، عندما سخرت منه بصدق لرغبته في كي قميص له سيلبسه تحت السويتر. سخرت منه لأن الملابس لم تكن تهمني، أما بالنسبة إليه، فقد كان هذا القميص هو القريب جدا من القلب، لأن فكرته عن الجمال لم تكن مجردة كانت الملابس أحد دعاماتها. الملابس كونت له قلبا آخر يريد أن يراه، جميلاً. جمال مكتسب. يريد أن ينشئ توازنًا، سيتحقق فيما بعد، بين قلب الملابس والقلب الداخلي، لأن حركته وفعاليته لا تأتيان من الحدة أو التطرف أو إلغاء أحد طرفي المعادلة؛ بل من التوازن، من حساب للخارج لصالح إيمان داخلي، لتعميق الوجود واكتساب مفردات حياتية له أو هكذا أراه.

إلى أن تتساوى، من حديقة طفولتي؛ هدوم اللعب وهدوم الخروج أما الأعياد فبعيدة ومقدسة، ومقدسة ملابسها والقلوب التي ترتديها.

١٥

لقد رحل الإسكندر مسافة طويلة ليصل إلى سيوة ليبني معبدا للإله وينصب نفسه ابنًا له. لم يرد أن ينسخ الإله في المدن الآهلة، فانتقل، به إلى هذا المكان البعيد، وفي الرحلة ستقل سطوته. المفاجأة الحقيقية ليست هي المعبد، فهو مهدم، بل مساحات النخيل التي يتوسطها المعبد على ربوة عالية؛ لون آخر للروح غير لون الطمي. عندما نظرت من أعلى الجرف على الواحة أمكنني أن أرى بوضوح خطوطًا تفصل بين لونين: الأصفر والأخضر.

١٦

كانت المسافة التي قطعتها بعيدا عن الإسكندرية كفيلة لأن أفكر وأعيش بدون أجساد أحبها أو أكرهها. كان الفارق بين المكانين، ليس عمق التفكير الذي يتولد بالمسافة، بل الغياب المادي لأجساد وكتل من المشاعر تحيط بي. كنت أبحث عن غياب مادي للآخرين غير الموت. غياب مؤقت لم أعرف كم كان سيطول زمنه. وكما تعمدت أن أتغافل عن ا لأرى الأرض التي أتحرك عليها والصباح بدون ضوء سماوي. كنت لا أريد أن أحتمي في دفء لا أحتاجه، ولا لأحد أن يستثمر خوفي من أجل أن أحبه. الجسور موجودة، لم أكتشفها كلها، وما زالت صالحة لعبور دماء نوعية، من فصيلة نادرة. أحاول في أماكن أخرى، واكتشافها جميعا لن يتم إلا بعد انتقالنا كمادة حية في هذا النسيج الكوني. إلا بعد تحولي، بعد أن يبعث مجتمع الداخل من الموت والنسيان ويطفو على سطح جسدي، بألوان مختلفة. ليست مقايضة من أجل

الحب ولكن تسليمي بهذا الحب سيفرض وجود ثالث غائب بيننا، ليرعى هذا الالتزام الأخلاقي. وقاع البئر "لطبقتي " وكل من سأحبه، ما زالا قاصرين على أن يحلا مكانه. تهديد دائم وكأنك توجد لجسدك، مختارا، مركزا بعيدا، وإن كان من قبل هو الداخل وطفولته وبعثهما كلحظة وجودية تختار فيها إلها خاصا ليخلصك؛ فهو الآن من صميم المخاوف التي حاربتها. لم ينضج الخوف، لذا لم ينضج الغائب الذي حاربته لأحدد ما يعنيني من الخوف. وبيني وبين من سأحبه كعهد مستقبلي لحصر هذا الغائب: الشاهد؛ بإفساح مجال بيننا لتحققه، بعلامات من تطابق عقارب روحينا وجسدينا، بتنظيم ومراقبة والسهر على الخوف في صوفية جسدية، وأكثر رحمة. لن تجد الذات المتمردة طبقتها جاهزة، أو خطا صاعدا للتمرد، فقط لتوسع من أرض وجودها وتعمقها. وأخشى أن أتحول إلى ذات طبقية، بالخوف التقليدي للطبقة.

١٧

أصبح الموت عضويا بالنسبة لي، بعد موت أبي. طوال حياتي كنت أركز عاطفتي للفقد تجاه أمي، بتخيل موتها والدموع الهاربة في فضاء هذا التخيل. لقد فاجأني أبي بموته ولكنه سمح لي بمسافة سنتين من المرض رافقته فيهما، ووسعت له من قلبي، وأصبح هدفًا لحنيني النقدي؛ حنين بدون سفر أو خطابات. لقد ترك لي بعضا من كتلته، وكنت معرضا لأن أفقدها تماما، وأفقد معها قانونًا عضويا للمحبة. ليس في كل وقت ستكون مسافة الإقصاء مفيدة، لتتجرد الكتلة وتدخل في شبكة من الرموز والألم الأول، لأنه في المسافة قد تضيع الكتلة وتخرج من مجرتك وتعيش بلا جاذبية في الفضاء، في الفضاء الغامض من جسدك، كآلة غريزي. هناك مجال للفقد يحفظ الكتلة وتاريخها والمعنى الذي تربت عليه وورثته، ويحفظ للألم جدواه.

١٨

استوقفني رجل عجوز بالشارع وقال أنه يشبه علي، لقد رآني في بعض المقاهي التي أرتادها بالإسكندرية، ولكنه لم يلفت نظري هناك. وأيضا يعرف بعض الأشخاص الذين أعرفهم؛ أبو اليزيد صاحب مطحن البن على محطة الترام والحلاق وبائع الجرائد المسائية، وأنه مولود بالشارع الذي أسكن فيه وأحد أقارب أمي هو الذي أنقذ حياته وهو طفل. شبهني شكله ب" نيكولا المأساوي" في رواية صبري موسى "فساد الأمكنة". نيكولا الذي ترك وطنه واستقر في صحراء البحرالأحمرليعالج الصخور ويخلصها من أمراض الذهب، وأيضا ليعالج مأساته مع زوجته، ليخلص قلبه من أمراض الحب. كان، عم محمد، يحمل معه وطنًا من الذكريات جعله يجازف بالإسكندرية ؛ المدينة المتوائمة مع بشرته البيضاء وأصوله الأجنبية، ويستقر في" سيوة" مديرا لفندق، ودعاني

للإقامة فيه وأن أترك فندقي" الحقير" كما قال وسأقبل عرضه في سبيل أن أفتح هذا الصندوق الأبيض.

عندما ذكر لي اسم الشارع الذي ولد به، ذكرت له اسم عائلة أمي، لأنها مؤسسة لهذا الشارع منذ زمن طويل. لم أذكر له اسم عائلة أبي. كل طفولتي كانت محاطة بعائلة أمي، حيث نسكن في بيت لهم، وفي الطابقين المتبقيين من البيت كانت تقيم جدتي وخالتي. وشهد السلم الداخلي في البيت آلاف من الأقدام المتبادلة وأطباق الطعام. حتى أن أخي الكبير كان أصدقاؤه يطلقون علية" أحمد جميعي " بدلاً من"أحمد خالد". كأنني في أي لحظة محتاج لطبقة أثور عليها وأيضا لتحميني. أو أن التغيير نفسه قابع في فراغات منسية لهذه الطبقة. تناقض فج ولكن التناقضات الحقيقية لن تتوفر ببساطة، وأيضا الثورات الحقيقية. التي تترك الروح على شفا المرارة " السكر المر."

١٩

..لكي تكون كتلة في مجرة تجمعك بالآخرين، بأكثر من بحر موتًا قائما بذاته. ويكون الموت داخلك كعضو أصيل بانفصاله عن كل أقنعته؛ موتًا صافيا. لأنه الغريزة التي لم أستمتع منها سوى بالألم والتخيل. الموت هنا فضيلة لأنه تعدى القشرة الخارجية للذات. الموت هنا بناء إضافي، عضو جديد لحاسة جديدة، لأنك أنجزت كتلتك. لذا سيكون عبور الفجوة السوداء بينك وبين موت الآخر أو محبته، لن يكون تراجيديا، أو حنينًا صافيا، بل عملاً وجهدا لتكتمل، سيكون أول شروط المحبة.

تساءلت وأنا أشرب من مياه العين بعد عطش طويل وأغسل بها وجهي: هل لم أحب أبي في طبقة مجهولة من ذاتي؟ الحب بمعناه عدم قدرتك على منع حياة الآخرين من أن تدخلك لأنك لا تملك أي دفاع. هل طوال ثلاثين عاما لم تنم بذرة عشوائية زرعها بالصدفة في

صباح عيد وهو يدخل علي بالملابس الجديدة أو بسرده لحكاياته مع الفتيات

اللاتي أحبهن في الجامعة ليخفف من صدمتي المفتعلة تجاه فتاة لم تحبني ومن أجلها أقدمت على الانتحار. أو بصباح حديث ترك فيه وجهه تحت النافذة والضوء، وتحرك شجر الحديقة من ورائها على وجهه، كأنه يرحل به إلى الطبيعة. وفي الزمن الذي تعديت خلاله أكثر من حاجز وذكرى؛ كان الماء قد جف تماما من فوق وجهي.

٢٠

هناك مستوى ما في أي تناقض الحب والكراهية، وفي أي فقد؛ صالح لتأسيس أرض للذات لتثرثر منها، وتوحد وتستبعد بين العلامات والرموز، لتحافظ على وسط تعيش فيه. لم يفقد خيط الأب تماما، المهم الآن هو المكان الذي يمكن أن أراه فيه، أي مستوي للتناقض يمكن أن يرد إليه زمنه. والنسيان ليس له معنى إلا كبعث لتذكر جديد. البعث ليس موقوفًا على الماضي فقط ولكن أيضا للمستقبل. قد يكون الأب الحسي مفقودا ولكن رموزه لا تموت، قد تختفي عضوية الرمز، ويظل زمنه؛ كتلته الأخرى؛ الذي لو عبر بتذكر حق، بتواقت مضيء، ستعادله الحياة. ليس حبا في الأب الذي مات، ولكن حبا في، في تحضير الجسد بتاريخيته ليتواقت مع تاريخية إنسانية أشمل؛ كي لا نهدم بناء فارغًا ومجردا، كي لا نتحرر دون أن نقف أمام المادة ودون أن نتعداها إلى مركزها البعيد. أن يحضر الآخر بقوته وليس مجردا منها،

التي لن تثبت، فقط، مشاعري ضده والتي كانت هامة في فترة ما. الآن أنا وهو وليس أنا فقط.

كان "عم محمد" يمتلك منطقة للفرح في الحديث، أو هذا ما بدا لي في أول لقاء معه. كان هذا الفرح هو التوحد مع الآلام بواسطة صديق عابر. هي المنطقة الضعيفة التي يدخل منها الآخرون والتي تعني أن هناك آلاما لم يتم الحديث عنها بعد، آلاما مازالت تتفاقم ويعاد بناؤها من جديد. الظلام لم يسدل تماما، ما زالت هناك ذات أخرى لم يتم الحديث عنها؛ الذات الأمل، التي لا تتحقق إلا في وجود آخرين بالنسبة لعم محمد.

ولأني رضيت بتوافق بسيط مع آخرين ؛ توافق مشروط، كانت سيوة هي المكان الصالح لهذا التوافق، لتواطؤ ليس مصدره الخوف بل التعاطف المتبادل. ولأدع هذا التوافق يصل بي إلى النتائج، حتى ولو لم تكن هناك نتائج، ستبقى الآثار عالقة بأماكن وأشخاص محددين. هذا التواطؤ معناه أن هناك جزءا مثقوبا في قلبي، إن كان

سيمرر الشوائب فأيضا سيمرر التجربة؛ كباب موارب لن يتسلل منه، فقط، اللصوص. أن يكون مواربا معناه أن القلب لم يكتمل، وسيظل مهددا، وفي أي لحظة.

سيدخل الزائر المنتظر، والذي لن يكون واحدا، "عم محمد" أو نيكولا المأساوي؛ صديقي الجديد. نعم صديقي، لأنه ابتسم في وجهي، والابتسامة في هذا المكان البعيد لا تعني سوى الصداقة. صداقة لن تدوم طويلاً، ليس لعودتي إلى الإسكندرية ولا لضيق ذاكرتي من أن تحمل آخرين.

عندما سألت"نيكولا" عن سبب مجيئه لهذا المكان البعيد، أجابني بأنه أتي هاربا من المدينة ومن زوجته التي ماتت. علاقة خفية بين المدينة والموت، والهروب من المدينة هروب من الموت أو مواجهته على أرض بدائية؛ الأرض التي ولد فيها. أتى ليكشف لنفسه سر الغموض الذي يحيط بسيوة، وفي طريقه لكشف هذا الغموض

اكتشف نفسه من جديد. لقد تغير، فبعد موت زوجته انخرط فى حياة الملاهي والخمر، أصبح الخمر دواءه الجديد، سلم نفسه لضياع أنقذته منه زوجته خلال فترة زواجهما. وبعد موتها لم يجد مبررا للحفاظ على اتزانه. ولكن هناك قشة يمكن أن يتعلق بها؛ الذكريات وثلاثة أبناء"ولد وبنتان تشبهان أمهما" ، هذه الذكريات هي المكان الحي الذي لم يتأثر بالخمر، المكان الذي مازال يلقى تعاليم زوجته. ولم يكن لهذا المكان أن يتضح إلا بعد أن يوضع في سياق مكان أكبر غريزي، يوسع من رقعة المكان الأول، وكانت سيوة أو هكذا تكلم.

كل تخط هو اكتساب لأراضٍ جديدة. والطفولة كتابة هي الأرض الجديدة التي تحتفظ منها بغرائزيتها. التخطي عند "عم محمد" هو سلام مع الماضي. كانت أمومته طافحة خاصه عند الحديث عن بناته. وعند سؤاله عن المستقبل الذي ينتظرني !

الواحة هي المنطقة الضعيفة في الصحراء، هي" امتداد خطوط الضعف التي تفصل تكوينات صخرية". سلسلة من الجبال تحيط بالواحة، وعندما اقتربت من جبل (الدكرور) تغير لونه، لون مائل للحمرة لطبيعة المعادن التي تسكن فيه. و وراؤه مباشرة عين يستحم فيها أهل الواحة لأنها تمنح مياها دافئة، حتى في الشتاء، دليلاً على أن المياه لها جذورقريبة من سطح الأرض، لذا لا تفقد حرارتها أثناء رحلة الصعود إلى أعلى. هنا الإنسان قريب من لب الأرض! الماء وليس اللافا.

وبالماء تحركت طبيعته، فراسخ، بعيدا عن المعادن الملتهبة. إنني أتذكر من أجل أن تكون جذوري قريبة مني، مثل النباتات المائية، جذور من أجل التنقل والتضامن مع حركة الهواء.

٢٣

في الصحراء ستصادف عينًا للمياه حولها دائرة من الأسمنت، ثم دائرة أخرى من النخيل ثم دائرة أخرى من البيوت. دوائر محكمة لوتيرة الصحراء، وبسهولة يمكن التعرف على بذرة أول بيت وأول نخلة وأول قدم عبرت نصف القطر الاجتماعي. بسهولة يمكن تحديد هوية الزمن لأن المركز عارٍ العروسة التي تستحم في مياه العين قبل زواجها لتؤمن جسدها بخصوبة أرضية ؟ لتصل نصف القطر الخفي بين العين والبيوت. والأرملة التي مات زوجها حديثًا، تظل في بيتها أربعين يوما، تقضيها في غرفة مظلمة تستأنس فيها الروح الميتة لتطفو على سطح جسدها، ثم تذهب إلى العين برائحة زوجها وتتركها هناك، ليعودا اثنين. ورغم كل الأرواح التي تختزنها العين تظل شفافة، لقدرتها على النسيان.

٢٤

أحيانًا كثيرة كنت ألعب مع أصدقائي بدون دواء يؤمن نتيجة هذا اللعب. يوما فاجأتني الأزمة الصدرية فصعدت إلى بيت جدتي الواسع وتمددت على الكنبة لمدة طويلة، وبين الحين والآخر كنت أنقط قليلاً من روح النعناع على كوب ماء وأتناوله، كان هو العلاج الذي وصفته لنفسي وكان عليه أن يشفيني، اخترته لأن كلمة "روح النعناع " كانت تدل على روح رحبة يمكن أن توسع رئتيي وتؤمن لهما الهواء، وبالفعل تلاشت الأزمة بعد عدة ساعات، فقط لإيماني بروح النعناع. لم تخرج الكنبة من ذاكرتي ولا لونها ولا المسند الخشبي ولا الصوت الذي كانت تصدره عندما أتقلب عليها بحثًا عن ثقب للهواء. كانت الرئة هي القناع الهش الذي تسرب منه الخوف. وحاولت بعد ذلك أن أستغلها كمكان للضعف الجميل، أو الاعتراف في كتابتي، وأيضا للتحرش

بالآخرين، ولكنها لم تعر شيئًا هاما، لم تكن مؤهلة لتقوم بهذا الدور لأنها كانت أقوى مني. ولم أدخر بها أي رغبة سوى الرغبات المسلوبة، و أي رموز حية سوى الحاجة للهواء والنوم الطويل وتخيل الأصدقاء وهم يلعبون.

٢٥

على جانبي الباب المنخفض الذي يقضي إلى غرفة مظلمة جمعت فيها إيزيس أشلاء أوزيريس، على سرير حجري يتوسط الغرفة؛ شاهدت رسما لكل منهما: جسد إيزيس حي ومحتشد بالألوان، كل عضو له لون خاص، أما جسد أوزيريس فلا ألوان تحدده من الداخل، فقط لون واحد لحمي منتشر كطبقة شفافة فوق عدة خطوط متقاطعة بطول وعرض الجسد، ألغت التشريح الداخلي وحولته الى مسطح من المربعات الهندسية كالتي يستخدمها الأطفال؛ إلى رمز لن يسترد عضويته إلا بتخيل الصحراء.

عندما شاهدت جواز سفر جاري الأجنبي تمنيت أن أمتلك مثله، كل صفحة فيه ختمت في بلد مختلف. الجواز موسوعة للأختام. ودائما سيدني بواتيبه في فيلم "الأب جون " ؛ عندما فحصوا جواز سفره فوجدوه قد زار فيتنام وكوبا وإفريقيا وكل المدن المعذبة في العالم. كان يريد أن يكتشف الإنسان المضاد للتقدم ! الإنسان الصافي. ويظل حديثه لحظة الاستجواب وتظل اللحظة التي تنبأ فيها بنهاية العالم، لأنه خلال تلك الرحلات استخلص قانونًا بعدم استمرارية هذا العالم. تعامل مع العالم كنبي قد يكون قد أنقذ نفسه بحمايتها بأسباب هذا التدهور، بالمعرفة، بأن اختار لنفسه حياة وموتًا مختلفين، ولكنه لم يحم الإنسان الذي سافر من أجله. وعندما سجنوه لم يقلق فمسافات كبيرة يدخرها في قلبه، وفي اللحظة التي شعر فيها بنهاية العالم أراد أن يعيشها مع الناس، حيث الهواء يتزايد والملابس تطير، والطيورتفقد صوابها، بينما هو في

الزنزانة يجهز حقيبته لرحلة أخيرة، وبالفعل تفتح الزنزانة أو يجدها مفتوحة وينحني له حراس السجن بقوة الكتاب المقدس الذي يحمله، بجواز سفره المليء بالنقوش والأختام، نفس غموض الكتب الدينية، ككتاب مقدس يشهره في وجوههم، كدين جديد اسمه "السفر". ويسير في الشارع بهدوء ويتأمل كل ما يجري، لقد تحرر ولكن بألم صارم.

سيدني بواتييه ولأنه أسود، حركه لونه لاكتشاف التمييز الأشمل في العالم. لكل واحد أن يكون له قاعدة اضطهاد يتحرك منها ليكتشف الاضطهاد في"العالم، ليعيد التوازن الى مرضه الجغرافي أو العرقي، والذي لا شفاء منه.

٢٧

التحقق الوحيد للجسد، لتماسكه الوهمي، هو لحظة ثباته، أما بحركته فهناك تغيير دائم في كتلته وفي حجم مشاعره وانتقال بفكرة الوجود إلى مكان أرحب. في التحرك تتحرك معه كتلة البشر لتتفرق، ولتتغير المشاعرتجاههم. خلال المسافة يأخذ الجسد أكثر من مسار أي يفصح قليلاً عن قانونه الداخلي ويصبح من السهل الفرح به. تواطؤ خفي بين المسافة والقلب. لم يأت الإسكندر إلى "سيوة " عبثًا، جاء لأنه كان يحدس بأنه خلال المسافة الطويلة ستختفي آلهة وتظهر آلهة أخرى، أو على الأقل ستتغير كثافة الآلهة؛ فجرب أن يكون هو الإله الجديد: إله وحدته.

المقهى من السابعة حتى العاشرة صباحا مخصص للعمال الصعايدة الفائضين عن حاجة العمل في الواحة. صباح للمنسيين ، يعبئون فيه ذاكرتهم بشحنات متدفقة من الذكريات عن"مكانهم الأول" الكلام محمل منذ بدايته وكل من سيجلس بمقعد مجاور لهم سيكون صديقًا بالمصادفة ومعبرا لأسرار سيخصونه بها إما بالحديث أو عندما يطلبون منه أن يكتب لهم خطابا إلى الأهل. كل من يجلس بجوارهم لابد أن يمتلك أذنًا طيبةً. ومنهم "حجاج" الذي لم يطلب مني أن أكتب له خطابا ولم يخصني بأية أسرار، فقط كان يريد أن يتكلم معي. وعندما عرف بأني من الإسكندرية بادرني "أحسن ناس" ؛ ولكن الكلمة عنده لها معنى خاص. فقد فاته القطار الحربي وهو نائم في انتظاره، وقام أحد الشبان متطوعا بتوصيله إلى محطة "سيدي جابر"، المحطة التالية للقطار. يذكر هذه، الحادثة

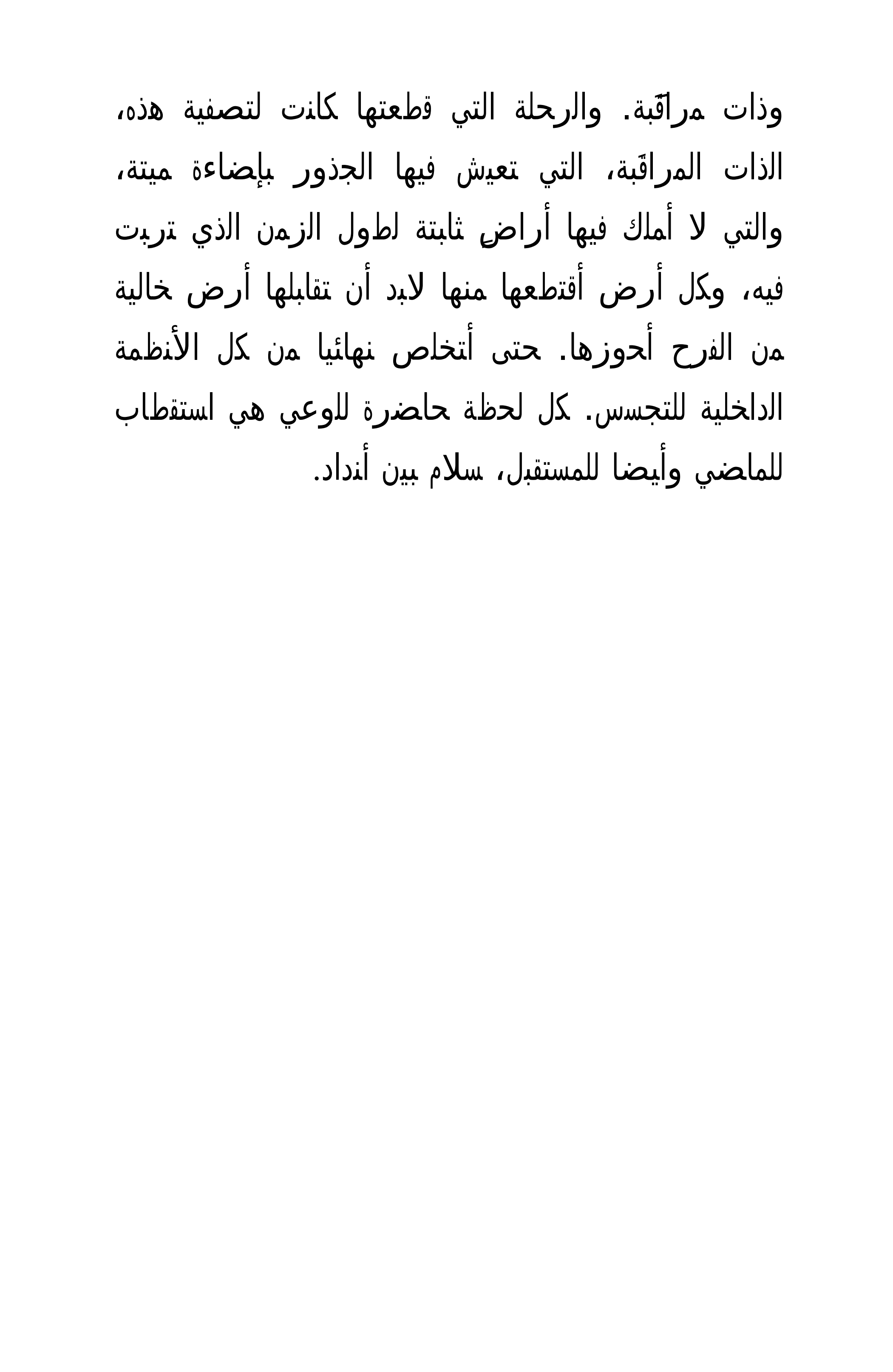
بكثير من الحب، وذكراه عن أي مكان ترتبط بذكرى جميلة، بإنسان قدم له المساعدة. أعتقد أنه كان يعدني لأكون له الذكري الجميلة في سيوة ليحكي عنى بعد ذلك، في محطته التالية والتي تمنى أن تكون الكويت. وأصر على أن يدفع الحساب، بالرغم من المشروبات الكثيرة التي تناولناها، ظنا منه أني سأدفعها لأعوضه بشكل ما عن يوم مفقود للعمل.

كل لقاءاتي "بحجاج" بعد ذلك كانت صدفةً في أحد المزارع، على عربة نصف نقل في طريقها لأحد المواقع، على المقهى في الليل وهو متوحد تماما مع الشيشة وبراد الشاي، لم يحاول في أي مرة التقت فيها يدانا بالسلام أن يقحم نفسه علي واعتبر أن الحديث الطويل الذي دار بيننا على المقهى كاف. إلا في يوم سفره من سيوة؛ استوقفني من الطريق ليودعني. وكما لم يكن حزينًا لنسيانه من العمل؛ أيضا لم يكن حزينًا لمغادرته سيوة ولضيق الرزق بها، كأنه أخذ منها ما يريد، وبالأساس لم تكن له طموحات

كبيرة، كل مكان يفصل له طموحات حسب إمكاناته ورزقه، وحجاج سعيد بكل بلد يعيش بها، المهم أن لا يعود إلى قريته المنيا، أن يظل مسافرا ولا يعود ويرى أخاه الكبير ولا زوجته الجميلة !

فكرت كثيرا بالعودة إلى الإسكندرية وقطع رحلتي، ولكن سرعان ما قهرت هذه الفكرة. في هذا المكان البسيط الذي لا توجد فيه أية مفاجآت، لا توجد متعة سوى مراقبة ذاتك في حضور آخرين لن يغلق أمامهم الباب طويلاً. وأنت ترى ذاتك تضيق وتيأس من الرحلة التي قطعتها طوال حياتك لتحرك جدرانها ولو لبضع سنتيمترات، لينفتح الباب الذي تركت عليه رأسك، لتحصل على تهوية جيدة وإضاءة أفضل من كل النهارات التي تعمدت أن تسير فيها بجانب البحر ومن الجانب الآخر العربات.

ولكن يظل هناك أمل آخر، ذات أخرى ترصد تلك الذات الضيقة، وأن لحظة اليأس لن تحتلها ذات واحدة. أمل بالتعدد، وأكثر من ذات تتحرك بدون نقاط تتوحد فيها؛ وفي أبسط تقسيم يلخص رحلة العداء والحرب والأراضي المستقطعة، والحراسة الليلية والعلاج الذاتي بدلاً من الحاجة إلى طبيب أو مجتمع؟ أكثر من ذات؛ ذات مراقِبة



وذات مراقَبة. والرحلة التي قطعتها كانت لتصفية هذه، الذات المراقَبة، التي تعيش فيها الجذور بإضاءة ميتة، والتي لا أملك فيها أراضٍ ثابتة لطول الزمن الذي تربت فيه، وكل أرض أقتطعها منها لابد أن تقابلها أرض خالية من الفرح أحوزها. حتى أتخلص نهائيا من كل الأنظمة الداخلية للتجسس. كل لحظة حاضرة للوعي هي استقطاب للماضي وأيضا للمستقبل، سلام بين أنداد.

٣٠

ترددت كثيرا وأنا أضع يدي في جيبي لأخرج نقودا لشريف السنوسي مقابل زيارتي لمتحفه الخاص الذي جمع فيه كل "تراث" سيوة. من السهل أن أسمع هنا كلمة"تراث" ويمكن لفرد واحد أن يحتفظ به أو يجمعه، وهو غالبا الأدوات المستخدمة في الطعام والزينة والملابس، تراث حدده الأجانب، وحددوا كذلك النقطة التي يرجع إليها أهل الواحة ليمسكوا بخيط هويتهم. التراث هنا واضح تماما ومادي، ولامكان للغة فيه ولا للحكايات ولا للتعارض معه. ولكن مع شريف السنوسي " أحسست أن التراث يعني له أكثر من أن يبيعه لي، يعني له الجزء المضيء في شخصيته وبدونه سيفقد وسيلة، غير الكلام، للتعبير عن نفسه، هو تراث شخصي له. كان متحفه هو المكان المناسب لكي أتعرف عليه جيدا، كما أن المقهى هو المكان الجيد للصداقات العابرة.

أنا أسير بلا نظام في علاقاتي مع الناس، هذا ما أعتقده عن نفسي. وأحاول أن أكسب تلقائيتي حساسية عالية؛ بوصلة عضوية تجعلني أتوجه للفعل دون أن أفكر فيه كثيرا. أحيانًا تخطئ البوصلة ولكني أشعر أن الحظ معي، وعبر سلسلة من الأخطاء الحية ستكتسب البوصلة مناعة. البوصلة توجد في الذات المراقبة؟ معقل التغيرات، في أعماقها المظلمة، حيث تكونت الحساسية؛ كما تتحرك الأصوات في فضاء حنجرة الرجل العجوز، الحنجرة المثقوبة، لتقبض على الكلمة، والتي ستكون ملامحها قد أمحت في تلك المحاولات، ولكن أصبح هناك سياق للكلمة، حتى ولو كان الصفير الموحش وحركة أعضائه.

العين على أكثر من اتجاه وتصل بسوادها أول القلب؛ الحاضر النقدي والأضواء التي تتخلله من آخرين ومن أحلام ممكنة وهو الإضاءة الصعبة لتتم الرحلة، ليس فوق

مياه من الحنين الخالص، وإلا سأنضم نهائيا بكل ما أملك من حرارة وأصبح طبقة كثيفة من الظلام، متوحدة مع الجذور.

٣٢

هناك تاريخ غامض أسقط من ذاكرة هذه الواحة، تاريخ من الشتات والفنون المؤقتة التي تتسق مع الصحراء والزوال الذي يهددهم. لايمكن أن تكون العين هي المركز الذي يؤرخ بها. قد تكون العلامة الثابتة وقبلها كثير من العلامات التي استهلكتها الرحلة في الصحراء، وتاريخ من الطقوس واللغات والأغاني. ولا يمكن أن أصدق أن هذه المساحة الجغرافية الضيقة هي التي صنعت وجه هذا الرجل العجوز، أو بيت الطمي، هناك جغرافيا أخرى غير مدونة، ورحلة آخرى ومركز آخر في الخلف. قد تكون استراحتهم في هذا المكان العابر أخذت وقتًا أكثر من المعتاد، استأنسوا فيه الظل والطمي والنخل، وبنوا بيوت الأسمنت ليصدقوا بأن شتاتهم انتهى، قد يكون استهلاكهم للنخل في كل صناعتهم، ليستقطعوا جزءا من حيويته، من خلوده، ليؤكدوا استقرارهم بخلود نباتي، بل وأدخلوه في

مجال الموت، كشاهد للمقابر ليرفعوا موتهم من مرتبة العدم.

عندما سألت "عم محمد" عن صورة يحتفظ بها لزوجته الميتة أجابني بالنفي. ولكن السؤال مر صدفة على بضع ذكريات، فبكى بعد فترة قليلة من الوقت، بكى بكاء خفيفًا، يكفي أن تسقط دمعة، لأنها هي التي نجحت في عبوركل الموانع التي بنيت أثناء رغبته في الحياة مرة أخرى. في الفترة التي سبقت البكاء كان يبحث عن مدار حقيقي لدمعته. لم يبك من زمن، كما أخبرني وهو يخرج منديله، وبدأت تتآكل موهبة كانت تدعم حبه لزوجته، الكنز الذي فقده، وعندما فاجأته بنسيانه جاهد أن يحيي الموهبة القديمة بعد أن تخلى عن كل مواهبه؛ الأصدقاء، الخمر، السفر، والضحك. ذكرت أمامه اسم"صديقة" ستأتي إلى سيوة، ذكرت الاسم مرة واحدة وضمن سياق غير هام، ولكنه تذكر الاسم جيدا وأعاده علي قبل السفر، بحسٍ كأنه يعرفها، أو كون لها عاطفة طوال فترة وجودي معه.

ما يحمله الآن في ذاكرته هو بضعة أسماء، ذاكرته تعيش الآن مسارا" مختلفًا، بطاقاتها الكاملة على التجريد، بالأرقام، كتاريخ وفاة زوجته "صباح ٢٧ رجب ١٩٧٧ ، ولأنه هو الحقيقي فقد سحبه على كل التواريخ الأخرى، كتاريخ زواجهما، وهو أيضا "٧ ٢ رجب ١٩٧٧ " لم أعقب او أحاسبه، لأني أدركت أن التاريخ الحي هو تاريخ الموت، وأي أرقام أخرى لامعنى لها. لقد طابق بين التاريخين، لأن أحدهما كان زائداعلى هذا البناء المجرد للعاطفة. لكن حياة جديدة بالفعل بدأها في هذا المكان تعتمد على النسيان أو التجريد، ولكنها تمتلك فائضا على صنع علاقات وإدارة فندق وتطوير الخدمة به، والتنازع مع أصحاب الفنادق الأخرى لجذب السياح، وللجلوس بمنشة الذباب على باب الفندق لقراءة الجرائد بجانب فنجان القهوة، ولتقبيله سائحة إيطالية عندما طلبتُ منه أن أصور، وتقوم أيضا على السخرية المرة من أهل الواحة.

كل ليلة في المقهى يتجمع العمال الصعايدة، بعد لعب الدومينو، حول"عم عبده" ليحكي لهم عن الأنبياء وعن الجنة، هـ ـيشركهم في الحكي وأحيانا يتواطأ مع أخطائهم، لعدم معرفته، أو لغرابة المعلومة أو هذا أسلوبه في جذب الناس إليه. يقضي طوال المساء في المقهى، كغريب استقر في الواحة يبحث له عن أهل، وكلما رفعت عيني تجاهه، يحول عينيه لمكان آخر، ولأن نظره ضعيف ونظارته سميكة تكون لفتته بطيئة بما يتيح لي أن أضبطه وهو يراقبني، فعلها عدة مرات حتى تعارفنا من بعيد.

وبالرغم من النظارة السميكة التى تجعله فقط يرى الساعة من قريب لينهض إلى الصلاة؟ إلا أنه يسمي السائرين ويبادرهم بالسلام ويدعوهم للجلوس لتناول الشاي، ولم يحدث مرة. وقد نمى موهبة تتفق مع هذه المدينة، بخبرته في أصوات أهل الواحة. أثناء جلوسنا رأى سائحة جميلة تسير بمفردها، وأطلق تعليقه "الدبابير كتير" قالها كما يقول

مثلاً شعبيا، ويقصد أنها ستجد من يلسعها في الطريق. بنية جديدة تظهر في الواحة؛ صائدو السياح، ولقلة السياح النسبية فهي لا تتطلب مواهب كثيرة.

عندما يسير"عم عبده" يضم يديه بجانبه، ويسير بخطوة عسكرية منتظمة، متوحدا مع إيقاعه، كأنه هو رفيقه في السير، فلم أجده يسير مع أحد في الشوارع بالرغم من أصدقائه الكثيرين في المقهى، دائما بمفرده، ودائما بخطواته السريعة كأنه على موعد دائم بشخص مجهول سيقابله في الشارع أو ينتظر في بيته الفارغ. وسيطلعني بعد ذلك عن سبب هذا الفراغ في بيته وفي حياته كلها.

الوحيد الذي كان يسخر من "عم عبده " ومن حكاياته هو "عمار" فقد أي تمييز خارجي بين الأشخاص وبواسطة وجهه فقد أي محاسبة ممكنة من أحد. لايعمل ولايمتلك أرضا لزراعتها، ويتنقل بين المقهى والأرصفة في أي

ساعة من الليل أو النهار، تجده في كل مكان ومع أي تجمع. وله الحرية أن يشتم الآخرين ويفرض عليهم أن يعطوه سيجارة ويشعلوها له، بدون أن يشكرهم، كأنه يقدم معروفًا لهم. يمتلك وجها قبيحا للغاية ورأسا ضخمة، ويعرف هذا ويتندر عليه، كأنه يمتلك رأس مال يحق له به أن يتعالى على الآخرين ويجرحهم ويبصق في وجوههم. عندما سألته عن عمره، قال ثلاثون عاما. وجهه أكبر من هذا السن بكثير، أو كبره القبح، لقد أضاع والده شهادة ميلاده وأصبح عمره سائبا لا جذر له وعندما سننوه نسوا عشرة أو خمسة عشرعاما بناء على رغبته. المهم أنه لايعترف بهذه السنين المفقودة ويتعامل مع عمره الجديد، ومع شهادة ميلاده المخترعة بإخلاص تام. لن يحتاج عمار لذات مراِقبة يكونها، لأنها موجودة بفداحة في وجهه. هل اكتشفها حقا؟

٣٥

دخول أول سائحة إلى سيوة، الجميع يذكرونه ويتذكرون اسمها، وكذلك بقعة الدم الكبيرة والطازجة التي وجدوها على الملاءة في صباح اليوم التالي، ويحدسون بالفاعل الذي أسال دم الفتاة، لمعرفته لقليل من اللغة الإنجليزية. ومن يومها يحرص الصبية من عمال الفنادق على فحص الملاءات في الصباح، ويتندرون عليها في مساء المقهى. أصبح هناك جرح معلن، جنس مكشوف يهدد أهل الواحة لأنه أتى لهم من الخارج. وبقدر الإمكان يعزلون نساءهم عن مكان حدوثه؛ عن الفنادق والشوارع الكبيرة. أصبح الجنس خارجيا مختلطًا بحركة الشارع والبيع؟ بحركة البصر الممتد من المقاهي والمحال، وبدقة في معاينة الأقدام النسائية لقياس مدى توغل الرغبة فيها. بقدر الإمكان السياح معزولون، وكذلك من يتعامل معهم، كأنهم يرشحون جماعة منهم للقيام بهذا الشر الذي لابد

منه، وغالبيتهم من الصبية الصغار أو المتعلمين من أهل الواحة.

٣٦

بعد مرور روبيكا من أمام المقهى، في طريقها من المطعم إلى الفندق، الطريق الذي تقطعه عدة مرات يوميا، حافيةً وبملابسها الواسعة؛ أسلمت شهيتي للتعليقات التي تدور حولها، وكيف أنها ختمت زيارتها السابقة للواحة بفضيحة، عندما أخرج البوليس شابا سيويا من غرفتها بالفندق وملابسه من وراه، وكلام عن عبد ا صاحب الفندق الذي يحبها وأنه السبب وراء ترتيب هذا اللقاء.

المهندس "أشرف "، يعمل بالشركة الإيطالية التي تستخرج المياه الجوفية من العيون. له علاقات جيدة مع الأجانب ودائما بصحبتهم، على الرغم من أنه ملتحٍ يأكل أمامهم بالشوكة والسكين ونظافته زائدة، وحريص على التمايز بحركة غير طبيعية، بقميص ملون، بحلاقته شعررأسه تماما، وحريص على الجلوس، في الليل، "بمطعم عبده" وهو أهم مطعم في الواحة، ويتجمع فيه المجتمع الأرستقراطي؛ ليكون هدفًا واضحا لهم عند السؤال عن أي شيء، وكذلك لتبادل التحضر المفقود في تلك البقعة المتخلفة من العالم. أثناء سيره في الشارع يضع يده في جيب بنطلونه ويهرش مؤخرته بأطراف أصابعه، بشياكة متعمدة، كأنها ليست مؤخرة. كان من الممكن أن أكون مثله لأني كنت أطمح في استقرار سريع يعوض كل السنوات التي سبقت تخرجي من الجامعة؛ في أن أحصل على وظيفة بمرتب عال في شركة أجنبية كل طموح

العائلة في التفوق والذي حققه أخواي بامتياز. ولأني حصلت على وظيفة قريبة من طموحي، جاهدت لكي أحافظ عليها، على توازن مصطنع لازمني فترات طويلة من حياتي، توازن طبقي في وقت لم أدر فيه كلمة" طبقة" ومدى تأثيرها على سلوكي فكنت أوجه كل اللوم لطبقتي الداخلية. ثم فكرت لماذا لا أخرج مهزوما اجتماعيا، وكيف سأتحمل نفسي. سقطت من على حبل التوازن إلى الجهة التي تعنيني؛ الجهة الأقوى داخلي، وليس لي دخل في هذا، فقد كان من الممكن أن أسقط في الجهة الأخرى، التي لا تعنيني، وأحك مؤخرتي برقة إلى الأبد. ما ساعدني هي أيضا "الطبقة"، المتمثلة في أمي، التي خافت من أن أضيع فأمدتني يالنقود في غياب الوظيفة طوال ست سنوات وما قبلها. ما ساعدني تفهم رحب بيني وبين بشر حقيقيين. ولولا أمي والآخرون لتحولت إلى هزيمة اجتماعية حقيقية، ليس بها أي فائض للفرح، بل لتعبئتها بكل أزمات المجتمع وعدم القدرة على منعها. ما أقدر على تحديد،

الآن، أنني متورط في حسابات جديدة كليا وبعيدة عن حساباتي القديمة، لايهم أيهما الأفضل، ما دام في كل وقت تجد لذاتك مجتمعا جديدا من الحسابات والمخاوف، لتوطيد تعددها. قد تعود كل هذه الحسابات والمخاوف لجذر واحد يحركها، ولكنني أوقن أنه ليس جذرا أحاديا. داخل كل خوف اجتماعي خوف وجودي وحسابات وجودية وهو ما أحاول أن أستقطعه وأطوره لكي أمتلك لحظتي وما وراءها. لا أستقطعه الآن بالحرب، بل بالمحبة لكل تواريخي بتغيير حقيقي للأماكن والعادات وفورمة للشعر. الآن يمكن أن أحب نفسي بعد أن ضمنت كراهيتها.

العيون معرأة، وأي عاصفة ترابية شديدة قد تعطل حركة الحياة. وتظل العيون والواحة تحت تهديد الجبال التي تحوطها. لاتتفجر العيون أعلى الجبل، لأن قدرها أن تكون أسفل، تتفجر من النقطة الضعيفة التي داستها أقدام كثيرة لم تدر بأن ماء يجري تحتها، أن تكون أسفل بين الجبال ليتيح لها مكانها العميق والضعيف أيضا أن تتأمل من مسافة، لتهب حياة صافية.

طعم الماء مختلف في تلك العيون، من طينة أخرى من المشاعر، ليس لاختلاف المكونات الكيميائية، ولكن لاختلاف المصدر الروحي، الصحراء. الماء الذي يتصاعد عابرا بإخفاقات وموانع وطبقات ملحية، وبالرغم من هذا يكمل طريقه، لابد أن يكون محملاً بشعورحقيقي وبمشاعر أنهار منها الزائف، وانهارت كل المدارات الكاذبة ولم يجد سوى العين كشكل للتعبير عن أحقيته في أن يرى الشمس. عندما تذوقت الماء بلسان خائف أحسست

بثقل كل المعادن التي تحتويه. لم تكن المحاولة للارتواء من العطش.

٣٩

يحتوى أهل الواحة على شخصية بتفاصيل متسامحة لأي غريب وأحيانًا منتصرة له. نوع من الدونية، دونية فرضتها المسافة الطويلة بينهم وبين أي مدينة. نفس المسافة بينهم وبين الغريب؛ ليقهرهم من بعيد، أو ليقهروه من بعيد، مسافة يخفت فيها تأثير الصدام، نوع من الحماية. مسافة للخوف.

سالت"عم محمد" عن السبب في أني لا أراه مطلقًا على المقهى، قال الجميع ليسوا في مستواه الفكري. قالها وصدقتها. ليس لأنهم كذلك، ولكن لنوع المقارنة لأنه مختلف عن أي مكان يذهب إليه؛ بلغاته السبع وبلهجته المكسرة وملامحه الوسيمة، التي تدل على أرستقراطية مقطوعة الصلة بها، إلا في الداخل، وفي بعض ممارسات يحرص عليها مثل منشة الذباب والبنطلون ذي الحملات

والحذاء الإنجليزي اللامع، وإفطاره المكون من عسل أبيض وبان كيك.

متماسك عندما يتحدث، يعطي لنفسه مساحة من الصمت بين كل كلمة وأخرى، يتنفس خلالها ويفكر فيما يريد أن يقوله، في الخيط الهارب الذي يريد أن يلضمه بحديثه، لأن المعنى تفرق خلال تلك السنين، ويحتاج لدقة وجهد في اختيار الكلمات التي توافيه.

وأحيان كثيرة لاتكون الكلمة على مقاس المعنى المطلوب، فتغزوا حديثه بعض المفردات الغريبة والمضحكة. الحديث معه لايجب أن يقف على حدود الكلمات، لابد أن يفهم في سياق أنه وحيد وأنه يحمل معه بدلتين فقط وأنه قضى في سيوة خمسة عشر عاما مديرا لفندق بسيط، وأنه لا يحب أهل الواحة، لذا بنى جدارا بين لسانه وبين لسانهم وأن مفردات كبيرة خرجت نهائيا من قاموسه، وما يحتفظ به لن يفي بالغرض كاملاً، خاصة أمام طارئ مثقف مثلي. كان يتبعني في حديثي ويتمسك

بمفرداتي ويكررها. عندما يذكر ا يقول "ربنا سبحان ا وتعالى"، يكرر ربنا وا في جملة واحدة، بناء مترهل لجملة معروفة، بعكس البناء المجرد لحياة الأسماء داخله. ولكن تظل له كلمات حارقة"بالنهار بقابلك، بقابل حد تاني، بضحك، الوقت القاتل بالليل، بكلم الحيطان"، أصبحت المفردات قليلة عندما تتماس مع موضع خاص تكتسب دفئًا مطلقًا. يخصص النهار للمقابلات والضحك، أما الليل فللحديث مع الجدران.

أثناء تناولي الطعام مع"عم محمد"، استمعت لحديث بين" بكري" صاحب المطعم، الصعيدي، وبين رجل عجوز من أهل الواحة، وخلال الحديث سخر "بكري " بحدة من الرجل العجوز مشككًا في قدرته الجنسية بعد أن جاوز السبعين، وأيضا في قدرة نساء الواحة، الأقل سنا. ولم يدافع الرجل عن نفسه بحدة مضادة، ولم يلتفت إلي كأني لم أستمع لكل هذه السخرية.

هجر بكري سوهاج وهو صغير فأطلق اسمها على مطعمه. كلما شاهدت روبيكا في أي خروج لها إلى الشارع، كانت تحمل صندوقًا صغيرا. أجمل علاقة لاحظتها لبكري كانت مع ابنته الصغيرة، عندما يتناولان الإفطار، يوفر لها طقسا كاملاً من المداعبات والحكايات وطول البال، كان الطعام يدخلهما في إيقاع مشترك للفرح.

منذ ترك مدينته وهو مسافر، قضى عدة سنوات على شواطئ الإسكندرية يشتري من أفران أقاربه الحلويات ثم يبيعها على الشاطئ، كان يقابل الزبون على مسافات متباعدة، لم ينتظر أن يأتي إليه الزبون، إلا في سنواته الأخيرة. كانت" مطروح " هي محطته الثانية وعلمه الخواجة "بنايوتي" صنع الحلوى ولكن لم يعلمه لغته. مشكلة بكري والتي يعتقد أنها وراء عدم ازدهار مطعمه بالأجانب، هي عدم إلمامه بأي "لغوة"، يقصد أي

لغة "أجنبية". يتذكر بحنين المرات القليلة التي تردد فيها السياح على مطعمه، كان يقف طول النهار في المطبخ ليوفي طلباتهم الكثيرة، ولكنه كان سعيدا بالتعب. وكيف أنهم قبلوه واحدا واحدا، حتى النساء منهم. وسائحة طلبت أن تنام معه فاستغفر واعتذر لها بأدب. عندما حكى لي الحكاية، تجاوز كيف تم الاتصال بينهما وبأي "لغوة" عبرت التفاصيل الدقيقة للرغبة، الرفض والقبول. كرر علي الحكاية أكثر من مرة، وفي كل واحدة كانت تلمع عيناه، كأنه انتصر علي وعرى أمامي معدنه النقي.

عندما عرف بكري بأني"كاتب"، أوصاني بأن أكتب عن مطعمه وأن أفضح المطعم المجاور. وصاحبه السيوي، وأمدني بالأسرار اللازمة لنسج فضيحة تعيد صاحب المطعم "إبراهيم الأعرج" إلى السجن مرة أخرى بعد خروجه منه في قضيه بيع مخدرات وتسهيل دعارة للأجانب. لقد افتتح بكري مطعمه من أجل أن يقف بجوار أهل بلدته الصعايدة، الذين لم يكن لهم مكانًا في المطعم

المجاور ولم يتعود لعابهم على هذا النوع من الطعام. كانت المنافسة ظالمة بين المطعمين للفرق الشاسع في الطعام والنظافة والجو العام للمكان. كان بكري يحمل قضية خاسرة من البداية، أو أن الدافع لم يكن كافيا لكي يتفوق.

في المرة التالية التي سنذهب فيها إلى سيوة لتصوير فيلم تسجيلي عن الأماكن التي أحببتها هناك، سنقابل بكري وسيستقبلنا بفتور شديد، لأنه رآني أتناول طعامي باستمرار في المطعم المنافس له. لقد شعر بأن الأسرار التي حكاها لي عن منافسه أصبحت معلنة، وأن انتقالي من مطعمه معناه إفشاء للسر، كأن السر مرهون بعبودية، بأرض واحدة لتداوله. وعندما سأطلب منه أن نسجل معه بالصورة كل ما قلناه من قبل؛ سيرفض. كان مهزوما ليس لتخلي عنه فقط، بل لأن ابنته كانت مريضة، ولم يعد للإفطار في المطعم معنى، فهجره بعد أن سلمه لأحد أقاربه، وتفرغ للفرن الذي بدأ به في سيوة، واعتقد

أنه بعد سنوات سيهجر كل سيوة ويعود سائرا على الشواطئ في الإسكندرية بحثًا عن السبب الذي جعله مغتربا عن مدينته أربعين عاما عن السر الذي لم يعلنه إلا في أرض الحاجة.

في تلك الزيارة المكررة؛ شاركني "إسلام" الرحلة. كانت الرغبة في عمل فيلم عن المكان هي القاسم المشترك بيننا، لعلاقتي بالكتابة ولعلاقته بالسينما. أسبوع قضيناه ليس تحت سيطرة الكاميرا فقط، بل استهوتنا الدراجات، كذا النزهات الليلية والتي لم أفكر في أن أقوم بها بمفردي.

كانت الكاميرا هي العين الثالثة بيننا، والمراقبة لحساسية كل منا في اصطياد الحياة. وما سجلناه كان وثيقة لعلاقة كل منا مع الآخر؛ هامش الصورة وتاريخها الجمالي، وأيضا لعلاقتنا بالحياة العابرة في تلك اللحظة، والتي أحيانًا تكون أعلى أو أقل من حساسية المكان.

وثلاثة شهور بعدها، بالمونتاج، توصلنا لصيغة لهذا التوثيق الحي. تم استبعاد كل المشاهد اليائسة، كمشهد الخروف الميت الذي صورته وكومة من الذباب تطن في أحشائه المعلنة، واستمراري في متابعة الفروة حتى يمحي

تماما معنى الموت الفعلي ويتحول إلى أثر جمالي للموت، إلى مجموعة من خصلات الفرو يحركها الهواء، ولن توحي بأن أصلها هو ذلك الخروف الميت. وتساءلنا هل نضم المشهد إلى الفيلم كما صورناه بداية من الخروف وأمعائه حتى نصل إلى خصلات الفرو البعيدة، أو بالعكس. تم استبعاد المشهدين. ومشاهد أخرى لنخلة مقطوعة، ولمزارع من النخيل المحروق، كمثال للموت الذي يتخلل المكان ووصوله إلى أكثرالأعضاء حيوية فيه، ولكنها جميعا حذفت في المونتاج، طردها السياق الجمالي الذي اخترناه. ليس هناك موت صافٍ، عارٍ، بل موت اجتماعى، أكثر دقة.

وفي النهاية حصلنا على بناء مشترك، الأرض التي تكونت ضوئيا بقدر انفتاح كل منا على الآخر، ويجمع داخله علامات لاختلافات عميقة، لسوء في التواصل، أو لسياق قد يجد له هدفًا آخر وبلدا آخر ليتعمق ويوحد بين تناقضاته. ولكن الخطأ الذي حصلنا عليه، كان حيا لأنه

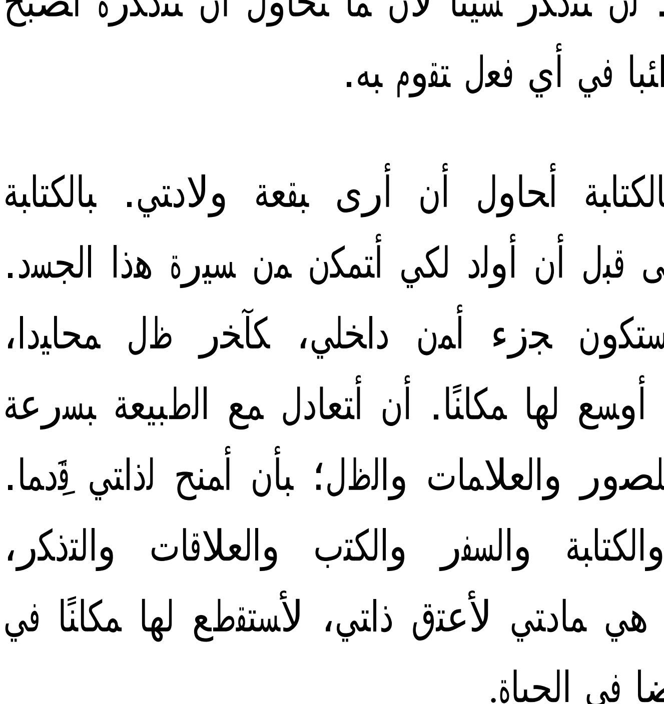
موثق، ويمكن في أي لحظة أن نجلس من جديد أمام الشاشة ونمسك بالخطإ ونتحدث عنه وعنا، وهو ما حدث بعد ذلك عندما شاهدنا الفيلم بين مجموعات من الأصدقاء.

ومن قبل، بخمسة شهور، في زيارتى الأولى "لسيوة" وضعت حجر الأساس لمتعة مختلفة ولحاسة جديدة السير لمسافات غير طبيعية حتى الوصول إلى"العيون"، بدون دراجة، فقط بحاسة الأقدام وبحاسة الشمس. ومن قبلها بسنوات بالإسكندرية السير على البحر، وحيدا، وسط وجوه أصبحت جزء من سواد العين. لم أجد متعة في هذا السير بدون بحر على يميني في رحلة الذهاب وعلى يساري في رحلة العودة؛ بدون جهة مفتوحة على بلاد أخرى. إلا أن المتعة كانت كامنة تحت هذا التعب الموجه، التعب الذي يبحث عن هدف له، أو الهدف كان ضمن تكوينه، العرق الغزير حتى الوصول لماء الجسد الذي رشح كل أملاحه ومعادنه المطفأة، حتى الوصول لعيونه المهجورة. التعب كوسيلة ضمن وسائل القسوة لتأمين مناخ شبيه لمعالجة النقاط المتراجعة في الجسد وماضيه، والذي

كان تراجعها عني قاسيا أيضا. إلى أن تحل وسيلة أخرى، الرفاهية مثلاً وأيضا المتعة المتوازنة بعمق ممهد في الذات لترى نفسها فيه؛ لتأمين وفرة الشخصية والنقاط المتقدمة فيها، والمستبعدة لسنوات طويلة. وانتظارا لمفاجآت الحياة نفسها.

عندما وصلت لـ " عين فطناس "، شعرت حينها بحياد، كأن وجودي سبقني وعقد معاهدة مع المكان. وخارج الطبيعة ! ما تشعر به كأن ظلاً ونخلاً وماء يتحركون داخلك. حاولت عندها، أن أتذكر أكثر الآلام، لأختبر صدق علاقتي بالمكان، ولم يتغير شيء. كان مكانًا لألم جديد؛ ألم الإحساس بوجودك حيا والمسافات والأشخاص، الذي لابد أن يفاجأ بهم، والمشاعر المختزنة التي تنتظرهم.

لم يكن مكانًا للتذكر، بل للعيش، أن تترك نفسك لمياه العين، التي رأيت بقعة ولادتها، بعكس البحر الذي تعاملت معه فقط كطريق تقطعه السفن أو تعبر من فوقه



الطائرات. لن تتذكر شيئًا لأن ما تحاول أن تتذكره أصبح شفافًا، وذائبا في أي فعل تقوم به.

بالكتابة أحاول أن أرى بقعة ولادتي. بالكتابة عشت حتى قبل أن أولد لكي أتمكن من سيرة هذا الجسد. الطبيعة ستكون جزء أمن داخلي، كآخر ظل محايدا، بشرط أن أوسع لها مكانًا. أن أتعادل مع الطبيعة بسرعة إنجازي للصور والعلامات والظل؛ بأن أمنح لذاتي قِدَما. والكلام والكتابة والسفر والكتب والعلاقات والتذكر، والنسيان؛ هي مادتي لأعتق ذاتي، لأستقطع لها مكانًا في اللغة وأيضا في الحياة.

أي مسافة للبعد عن شيء ما، هي أيضا مسافة للخوف، خوف من نوع آخر، لنقل الصدام الوشيك إلى مكان جديد، سيتغير فيه الطرفان لأستقبل ذاتي في مكان جديد وعبر وسائط جديدة. ماذا أفعل وهناك أشياء ما زالت تخيفني: الظلام وتجسد الموت، وأن أفقد روحي في مجتمع لن يحافظ عليها أو داخل إنسان أحبه.

ما أعتقده أن خوفي لم ينشأ من دونية طبقية صافية كأهل الواحة، دونية صنعتها الجغرافيا وجعلت للآخر مواسم للصدام وأيضا للاستفادة. بل نشأ من دونية أخرى بعزلة أخرى، وسط الناس، صنعها الاختلاف بيننا، وجعلت الآخر غير مرئي وكثيفًا في آن. إلا في أحيان قليلة إلا في فترات عكس فيها الميزان؛ فترات التميز: التفوق الدراسي وعندما أستمع لهموم وقصص حب أصدقائي من بعيد. وأي حضور لهذا الآخر، الأنثى مثلاً؛

هو عبور بلحم تكويني وصدام مرعب من أجل مكان لاثنين. والآن لم يعد خوفي طفوليا من أجل تواطؤ بسيط لأرضي عن مقتنياتي أو لأزيد المسافة بيننا؛ بل كطاقة هامة للتعجيل بنمو الذات أو موتها إن كان فاسدا. هو خوف للمستقبل.

ولكن تسربت خلاله بعض مساوئ الطفولة؛ فكرة التمايز: الهدوء، العقل، أول الفصل، أول المنتحرين ولكن بدون مجتمع يصفق لبطولتي، شهادة ليست ضد أحد، بلا مشهد يخلدها سوى مجتمع الداخل ولا لخطف محبة من أحد. وأن أكون دائما وراء جملتي مباشرة وضد كل من يحاول أن يسرقها في فمه.

تعجلي الدائم، الذي يفرض أن آكل الأشياء نيئة، مرة أحاول أن أعوضه بالدافع الحقيقي وراء القفزة وعمقها.

سرعة الإيقاع تفرقني عن "مجاهد" له خوف اجتماعي وطبيعة تفترض التراكم وعلاقة نشأت على مهل

مع الأشياء، ويتكون رصيدها مع الزمن، ولا يمكن حساب ريحه إلا مع الزمن، وجدارته كإنسان إلا في المستقبل بعد أن ينظر خلفه، وسيكون له الحق عندها بأن يستمتع بالنظر إلى الخلف، ليرى الشِباك وقد امتلأت.

لذا يمكن أن يؤجل، أو ينسى وجوده أحيانًا في لحظات عاطلة، لآنه يمكن أن يراه فيمن حوله، أن يكون آخر الفصل باختياره، أن يرى جمله في أفواه الآخرين ويفرح لها لأنها تحركت من آخر الفصل إلى أوله.

لم يتحرك، في البداية، برصيد من الثقة إلا باختبارها مع وجود حي؛ كنوع من الأمان. خوفه تسرب مع أشياء يحبها وأشياء يكرهها، تخلله بمعيار وخريطة ومجتمع، ومخلوط بمحبة لآخر ينضج مع الزمن، والعثورعليه، بعد أن مضت الطفولة، هو عبور بلحم تكوينه وإنضاجه! آخر لأمان غير دائم.

خوفه من برد الخامسة صباحا عندما يترك الفراش مضاء ويهبط إلى الشارع بخطوات متعجلة وبعين

مغلقة وبشعر لن يسرحه لأنه تجمد فوق رأسه، وبيدين مرتعشتين تسبقانه في السير، ليفتحا المقهى. وكعادته في السير دائما تسبقه يداه، لا ليشق بهما طريقًا وسط الظلام. خوفه من طبقة عرف منذ البداية أنها لن تحميه ولن يقدر أن يثور عليها، فاستقبلها في مكان متوسط، بينهما، ليحبها.

أما خوفي فقد كان وحيدا، وبلا خريطة واضحة، إما أستأنسه أو يقضي علي. وأي علاقة للحب لا أستقبلها في ذاتي مباشرة، بل في مركز قريب منها، أحاول أن يكون متوهجا بالحركة وبطموح وبفرح للمستقبل. في مركز قريب كذات بديلة، وغير متنصلة. واللحظة التي ستركد فيها ذاتي، عندها لن أقدر أن أحب أحدا.

٤٤

لتنضج الأشياء في زمن قياسي

يعوض الأزمنة الهامدة !

هل تحولتْ قسوتي إلى مكان أعمق في صميم الروح

وهو بطبيعته إلى الأمام!

قسوة صامتة

أم أن الصدام انتقل لمكان أعمق في الحياة

وهي بطبيعتها نيئة،

السكر المر

اللقمة الناقصة التي تطارد صاحبها.

"داود حبون" الوحيد الذي دعاني إلى بيته، أراد أن أقابله في مكانه الطبيعي، بعيدا عن السوق والمقاهي. لم يتحدث عن ذكرياته في سيوه إلا مخلوطة بأسماء مشاهير مروا بالواحة السادات، يوسف شاهين، تحية كاريوكا، حسين فهمي، وجميل راتب الذي تحدث عنه مقلدا صوته، وعندما دعاه في زيارة بالقاهرة إلى مطعم بالهرم ويومها طلب داود فراخًا مشوية، تناولها بيده .

أجلسني وسط أولاده، ليكشف لي عن أبوته الرحبة، ترك الحديث في فم الأبناء وما عليه إلا أن يصدق على الكلام بحادثة أو نكتة أو تعبير من وجهه يفصح عن رأيه فيما يقال. أجمل ما في البيت، بعد طبيعته الحية والنوافذ السرية التى تخزن الهواء وبناته اللاتي كن يتحركن بحرية حول غرفة المعيشة وتتحرك معهن أصواتهن؛ هو ابن في العاشرة يعامله" داود" كصديق

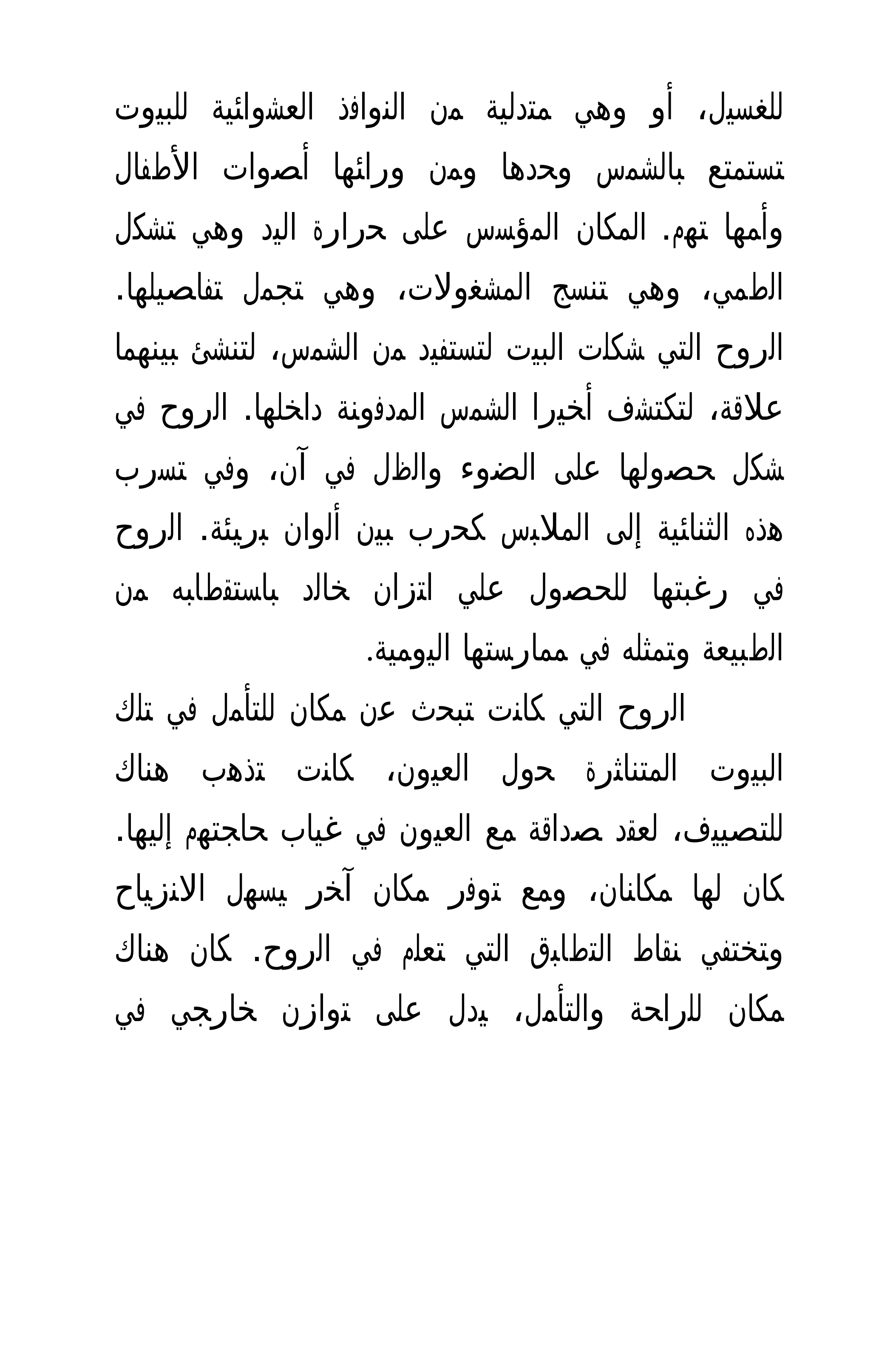
حقيقي، لدرجة أنه دخل معه في نقاش استمر طويلاً والابن يرد، حتى وصلا إلى نقطة من التسامح، ورضي" داود" بأن يحتفظ ابنه الصغير بقنفذ بجانبه داخل حجرة النوم. البيت هنا هو المكان الخاص، ويظل الغريب خارج هذه الخصوصية، خارج الجمال يتركونه في السوق والمقاهي ليستفيدوا منه بأقل وِدٍّ ممكن؛ خارج مدار الشاي الأخضر الذي لم ينقطع طوال سهرتي مع داود حبون، وله نفس طاقة" روح النعناع " في تسكين التعب.

في الطريق من بيت حبون إلى الفندق، طلب مني ابنه الصغير محمد، والذي أصر على أن يوصلني، القلم الفلوماستر الذي أكتب به. لقد أعجبه لونه وخطه. أعطيته له بعد برهة قصيره من التفكير. الأقلام هي أهم طلب للأطفال من الأجانب، وكلمة"Give me a Pen" منتشرة على كل ألسنة الأطفال، حتى الصغار منهم الذين لم يدخلوا المدرسة، أصبحت كلمة عامية من كثرة تكرارها في لغة آبائهم، وفي سياق أسماء محال المشغولات والمطاعم

ولافتات الطرق وقائمة الطعام، جميعها مكتوبة باللغة الإنجليزية.

الفتاة التي تقف أمام عين المياه لتُدعم خصوبتها بمادة طبيعية تحركت منها الحياة في الواحة؛ هي نفس الفتاة التي يعزلونها عن سياق أي غريب حتى ولو كان تحية كاريوكا، التي طلبت من داود حبون أن تأخذ صورة مع زوجته فرفض لأنه لايعرف مصير الصورة بعد ذلك وأي يد ستلمسها. هي نفس الفتاة التي تخلت عن ثوبها التقليدي لترتدي النقاب. هي النقطة الضعيفة التي سيتسرب منها التغيير. لذا فهي محاطة عمدا في الداخل وأثناء خروجها بثوب لا يكشف إلا عينًا واحدة، ليست للتأمل أو للشر أو لمراقبة السائرين؛ بل للوصول إلى البيت من أقصرطريق.

لم تعد الألوان الطبيعية لملابس النساء تسير في الشارع، ولم يعد لها حضورا إلا على الجدران المهدمة كنقوش بها حرارة الأنثى، أو وهي معلقة على حبل



للغسيل، أو وهي متدلية من النوافذ العشوائية للبيوت تستمتع بالشمس وحدها ومن ورائها أصوات الأطفال وأمها تهم. المكان المؤسس على حرارة اليد وهي تشكل الطمي، وهي تنسج المشغولات، وهي تجمل تفاصيلها. الروح التي شكلت البيت لتستفيد من الشمس، لتنشئ بينهما علاقة، لتكتشف أخيرا الشمس المدفونة داخلها. الروح في شكل حصولها على الضوء والظل في آن، وفي تسرب هذه الثنائية إلى الملابس كحرب بين ألوان بريئة. الروح في رغبتها للحصول علي اتزان خالد باستقطابه من الطبيعة وتمثله في ممارستها اليومية.

الروح التي كانت تبحث عن مكان للتأمل في تلك البيوت المتناثرة حول العيون، كانت تذهب هناك للتصييف، لعقد صداقة مع العيون في غياب حاجتهم إليها. كان لها مكانان، ومع توفر مكان آخر يسهل الانزياح وتختفي نقاط التطابق التي تعلم في الروح. كان هناك مكان للراحة والتأمل، يدل على توازن خارجي في

الحركة، أو على الأقل رغبة خفيه فيه. ويدل على توازن داخلي. فللذات فصول تزدهر فيها. أكثر من ذات أيضا، ولضيق العلاقات والجغرافيا وانحسارهما في المناخ وشكل التكيف معه؛ ضاقت هذه الذات الأخرى، الذات المتأملة؛ وظلت مشروطة بالحرارة، ترحل وراءالهواء وكنوزه السرية، وراءالظل لتتأمل مشروعها البسيط. في أي مكان ظليل وجدت للحديث مسارا آخر، مسارا ضاحكًا، حتى ولو كان حول أمور الدين والزراعة وهما مشروعا التأمل هنا، ولكنهما طبقتان نوعيتان من الدين والزراعة، ومن قبل محاولتهم للحصول على وحدة متوازنة تمثلت في البيت، للجمع بدون إفراط بين الضوء والظل، ومن هذه الثنائية البريئة خرجت كل الثنائيات الأخرى، الجذور ترحل كما هي، ولا رغبة في فرح جديد أو جذور جديدة، إنما الإنفاق من المخزون، من الذهب الذي كانوا يضعونه مع الميت. الجذور ترحل كما هي، لذا لن تنبت من الأسمنت ولن تتكاثر خلاله كفطرٍ صديق ؛ كما رأيتها

تعيش بهدوء في جدران الطمي. الأسمنت عدو الحياة النباتية، عدو العالم الأنثوي الذي كانوا يعيشون في كنفه رجالاً وأطفالاً ونساء. لكل واحد نصيب وقدر من الأنوثة؛ توائم هذا العالم النباتي.

الطريق الوحيد الذي يفضي إلى سوق المدينة والناحية الأخرى لا تنتهي بعين للمياه أو مزرعة للزيتون؛ هو طريق المقابر، عين جديدة يتجمع حولها الموتى بلا تمايز. مقابر نباتية من خشب النخيل، وبامتداد البصر تبدو كسقف بيت ظليل يتمدد تحته الموتى.

٤٧

في الطريق من المقابر إلى السوق توقفت أمام دكان للحلاقه، وجدت صاحبه الصعيدي يحتفظ بسشوار لكي الشعر، لا يستعمله.

يؤمنون بأن الذي غير سيوة هي الكهرباء ثم الطرق التي كانت تستخدمها الجمال، أصبحت صالحة لمرور العربات والتجار أصبحوا مربوطين، رغما عنهم، بمكان آخر بعيد، وبطموح آخر وببضائع أخرى وبلغات وبعملات صكت في بلاد متفرقة.

الآخر، الآن ، هو الغريب عن الواحة، للمصالح اليومية ودائما هو المشتري الذي يملك القدرة. كلمة"الغريب" الذي يتحدثون أمامه بلغتهم السيوية، كحاجز سميك بينهما، تشمل الصعيدي والأجنبي والموظف أو أي وافد طارئ.

الآخر، الآن، له وطأة وشريك في صناعة الذات، هو الجغرافيا المتنقلة أصبحت المسافة قريبة، داخل أرض واحدة. هل يمكن لعزلتهم أو تصورهم عن خصوصية صنعتها المسافة أن تدوم. سياق جديد للطبقية، لاختلاف الجذور، ولأي نقطة هامة يمكن التشبث والاستعادة مضطرون جميعا الآن لاستعادة ما، لخلاف ذاتي له القدرة على أن يعيش. حتى لا تضيع البوصلة وتُزرع في غير أرضها.

وما زالوا فرحين بالتقدم، وبالطرق التي استقبلت العربات وبالمدن البعيدة وأزيائها، وبالكهرباء. وما زال الصدام العميق الذي يهز هذا الكيان ليوضح تناقضاته؛ بعيدا. لذا فالتماسك مفروض عليهم وليس إنجازا للروح لتصفية تناقضاتها، هو نسيان. بذرة التناقض قد زرعت تماما وعليها أن تهبهم عذابها، غير الفقر والحاجة. وبقدر حاجتهم إليها سيعيش أهل الواحة حياتها الحقيقية أو الزائفة. ويمكن أن تصل مباشرة إلى السطح، ويتحطم الجسد أو يغيب. تناقض مسرب من وراء الذات، لا يشعرون به إلا وقد أجهز عليهم وعطل كل مراكز الاستقبال في الروح.

فرحين بالتغير، وكما أتصور، لابد أن يجرف معه الجذور أو يوحد سياقات لتحولها، لاستنزاف ثرائها، والسيوي الذي تحدث معي عن "التوازن"، كان يتحدث عن كلمة يمكن أن تجرف لو اصطدم بسياقها كاملاً.

التحول، الأرض الجديدة للانزياح، المنتصف بين أرض الجذور والأرض التي شفيت فيها الجذورلوكانت مريضة، وفائض قيمتها ورصيدها من الفرح، أو الجذور النقيضة لها. أرض المستقبل. لعبة تحتية تتضمن أي رغبة في التغير أو أي صدام بسيط مع آنية الحياة، والتي لابد لها وأن تتوقف كباب معزول بدون جدران نرخي عليه رؤوسنا حتى ينفتح.

التغيير داخل التاريخ الخاص، وداخل تيار أشمل من الأخلاق ينشط داخله التغيير. موهبة التناقض والسيطره والتراجع من أجل تقدم بطيء ولكنه فاعل التناقض: اللقمة التي تطارد صاحبها لأنه لم يأكلها كلها وهو صغير. اختلفت مسارات الفكر في الأرض الواحدة، ولم تتضامن عيونها أسفل الأرض، كالأواني المستطرقة. قاسم مشترك لحل التناقضات المركبة لمسارات الفكر، التي لن يستوعبها معمل المجتمع، أو معمل الواحة، وقد يستوعبها معمل الجسد، وفي انحرافاتها، في توسعاتها، في

فائضها عن الأصل الإنساني الواحد. نقطة انطلاق. لإيمان جديد وللثقة في الحياة.

هناك إخفاء متعمد للجذور. كان من الصعب أن نتبادل الجذور، وببساطة هي لحظة الراحة بين اثنين؛ في ظل هذا السياق من التبادلات التي تسيطر على حركة الحياة في هذه الواحة. ليس هناك هاجس بأي تواطؤ من أجل معرفة أفضل. وتظل الملاحظة المتبادلة بيننا هي المنهج الضروري للاستقصاء، وأحيانًا يحسن بالابتسامة. ويظل السوق والمطاعم وانتظارك أمام بيت لتشرب هي أقصى مجال يمكن لك أن تروي عطشك فيه. ويظل الحديث، بيننا، باردا؛ هو يسأل وأنا أجيب أو العكس. دائما حركة السؤال والجواب تعكس اهتماما غير مسئول بالآخر. وتعكس آنية للتبادل ليس بها أي انقطاعات للتأمل. انقطاعات تستكمل بتاريخ، بمركز صافٍ، وبخوف صافٍ، وبرغبة صافية أمكنهم أن يحتفظوا بها ويطوروها عبر كل الصدامات والصحراء التي عبروا بها وبرغبة عندي

كانت لابد أن تتجاوز المعرفة. انقطاعات تستكمل بهوية مرنة وبحسن نية متبادلة، وليس عبر حسابات، الآخر دائما جزء من فضاء متخم بالشكوك. ستكتسب أي شكوك جدارتها من الهدف منها، من الحلم الذي وراءها. حتى لا أكون سائحا فقط، ومن بلد بعيد تخرج فيه النساء عرايا، من بلد بعيد يقع بعيداعن سيوة ٧٠٠ كيلومترا ولكنها كافية لأن يصبح هذا الآخر البعيد مجردا ومحكوما بنسيان للنوع وللخريطة الأكبر التي تحكم كلانا. مجردا من أجل أن يتحملوه. وتعجبت من"أبي بكر" الذي وجدته يدرس القبائل التي تسكن جنوب إفريقيا وعلى علم بكل الصراعات التي تدور هناك، لأنه توقع أن كل سائح يأتي من جنوب إفريقيا لابد وأن يكون أسود، وعندما فوجئ بالعكس أخذ يبحث في الكتب. أيضا هو ليس له خريطة في وعي، ويبدو أني استهلكت لحظة التعارف بيننا دون أن أعرض جذوري وخريطتي عن الآخر الطارئ، لأن كتلة من ذاكرتي وأيضا حاضري كانت مستوطنة مع آخربن أنا أكثر معرفة

بهم ومساهمين في اندهاش ومتعة عند تذكرهم. لن تكفي الابتسامة لتشييد آنية للتبادل اليومي، لا أكثر من أن تفتت الكتلة الكبيرة وتصبح سيوة فلانًا وفلانًا حتى لا تتدين الابتسامة وتصبح أكثر دقة ونوعية وأرضا ممهدة لعبور مشاعر.

لو ذهبت إلى سيوة مرة ثالثة، لن أطلب تساويا مع أي إنسان هناك، ولن أتذكر أو أصنع فيلما؛ سأحاول أن أقتطع جزء من ابتسامتي وأمنحه "لداود حبون"، وجزء من حيادي. قد أستبعد الموت مؤقتا، ولكن دون أن أتنصل منه.

قاسم مشترك حقيقي بينك وبين الآخرين، حتى ولو كان بسيطًا، أو مشروعا لبناء الحب بدون رصيد في المحبة، بعد أن أحرقت آبارك متعمدا، فقط رغبة في المحبة لأنك ولدت بعد أخويك بثماني سنوات ولم تكن أخت لك لتقرب إليك عبء الأنوثة، لتلسع إصبعك بنار مطفأة.

وكان سريرك مواجها لهما، وكل ليلة تنهض من النوم مفزوعا وتلقي نظرة عليهما لتتأكد أنهما ما زالا هناك، وأنه ليس حلما، وأن الجدران لم تنشق وتبدل أخويك بأخوين أحن سنا. كانت أخوتك مسئولة لأنك كنت ترفض أن يدللك أحدا، وأنك كنت محاميا لأخيك الكبير أمام محكمة الأب، التي تنعقد لأسباب تافهة. لأنك كنت تحبه وتحب أمك. وكل مضطهد، في وقت لم تكن تجمع حولك المضطهدين ضد أحد، أو للانتقام، كنت تتحرك

بشعور متساوٍ مع الحياة وأي خلل بها ستلحظه بقوة وستحاول أن تغيره.

وحدك كنت تنتظر أخاك على رصيف الميناء عند عودته بالباخرة، بعد أن رفض الأب أن يستقبله، وقبل أن تذهب إليه تملأ البيت ويدك اليمنى بالورود، لأنه فيما بعد سيكون محاميا لك ضد الحاجة، محاميا بدون قضية ويمدك بالنقود والملابس والمودة التي تحتاجها عندما تتعمد أن تسد الثقوب التي تسرب المنافع من وإلى الحياة.

سيمدك بالنقود، لا كفائض من قلبه، ولكن كضرورة في أن يحبه أحد ولو بالنقود. " أحمد خالد" أحد البشر الحقيقيين الذين ساعدوني كي أعيد النقطة التي بدأت منها، متساويا مع الحياة. حقيقي بمعنى الحاجة إلي، وأيضا بمعنى سوء الترتيب الذي كان يحيط بنا وينحرف بأي علاقة، وسيجعل من كلمة "حقيقي" مكانًا واسعا وأكثر تاريخية.

أما أمي فهي صدفة غير تاريخية ولن تتكرر، وعلي أن أكملها حتى النهاية، بعبء الفقد، وبنفس الفارق في المشاعر وبنفس الأربعين عاما، وباب غرفتها المفتوح دائما في أي وقت من الليل أو النهار. وبنفس الدهشة من العين الصافية التي تتدفق منها مشاعرها. ستظل مركزا بعيدا عن متناولي ولامعةً.

أما أبي فجعلت منه، بدون قصد، صدفة غير تاريخية، مع أنه كان في حاجة للتفهم لأن مصادره، لم تكن خفية، أو أنها انحرفت عن مسارها بجهد غير طبيعي للذات، ولكن أمي وضعت لي مقياسا حيويا لتقبل الحنان. وبينهما، وضمن سنوات مضت، وسنوات أخرى كانت موازية لها، حاولت أن تكون لي ماديات مع الحياة.

٥١

في كل مرة كان يقدم فيها"رجائي" الطعام؛ كان يترك وراءه كلمة مفتوحة، يعود مرة أخرى وفي يوم آخر ليكملها. وهكذا على مدار إقامتي سرد علي حكايته. كان يتفنن في أن يرضيني وفي الاهتمام بي لأني تركت له أذني مفتوحتين وكذلك عدسة الكاميرا، بناء على رغبته في أن أصوره وهو يعمل، وهو يقدم الطعام وهو يسلي الزبائن، وهو يختلق النكات على الأجانب وكذلك تركت له بعضا من نقودي.

ينام مع زملاء له من بلدته في أحد المحال التي تتحول في الليل إلى لوكاندة للنازحين. ناداني منه أثناء سيري في الليل، لم أتبينه جيدا وسط مجموعة من الظلال حول نارضعيفة كان بينهم، عرفته من صوته ومن كلمة " يا باشمهندس " التي ينطقها وبينه وبينها مسافة من التواضع. شربت معه الشاي ومع زملائه، لم يكن وجهه

ضاحكًا كما هو في المطعم، كان وجها عاديا ومشدودا بحنين لحلم طال انتظاره.

مع الإنجيل يضع جواز سفره في كل رحلة يقوم بها، أراني إياه، رجائي منير حبيب، مولود بأبي قرقاص، نزلة جريس المينا، عام ١٩٦٣، وبمتابعتي صفحات الجواز وهو غائب، لأعثر على البلد التي حققت حلمه؛ سقطت منه صورة فتاة جميلة، هزرت معه بعد يومين من تلك الحادثة خطيبتك، قال: "لا، أختي".

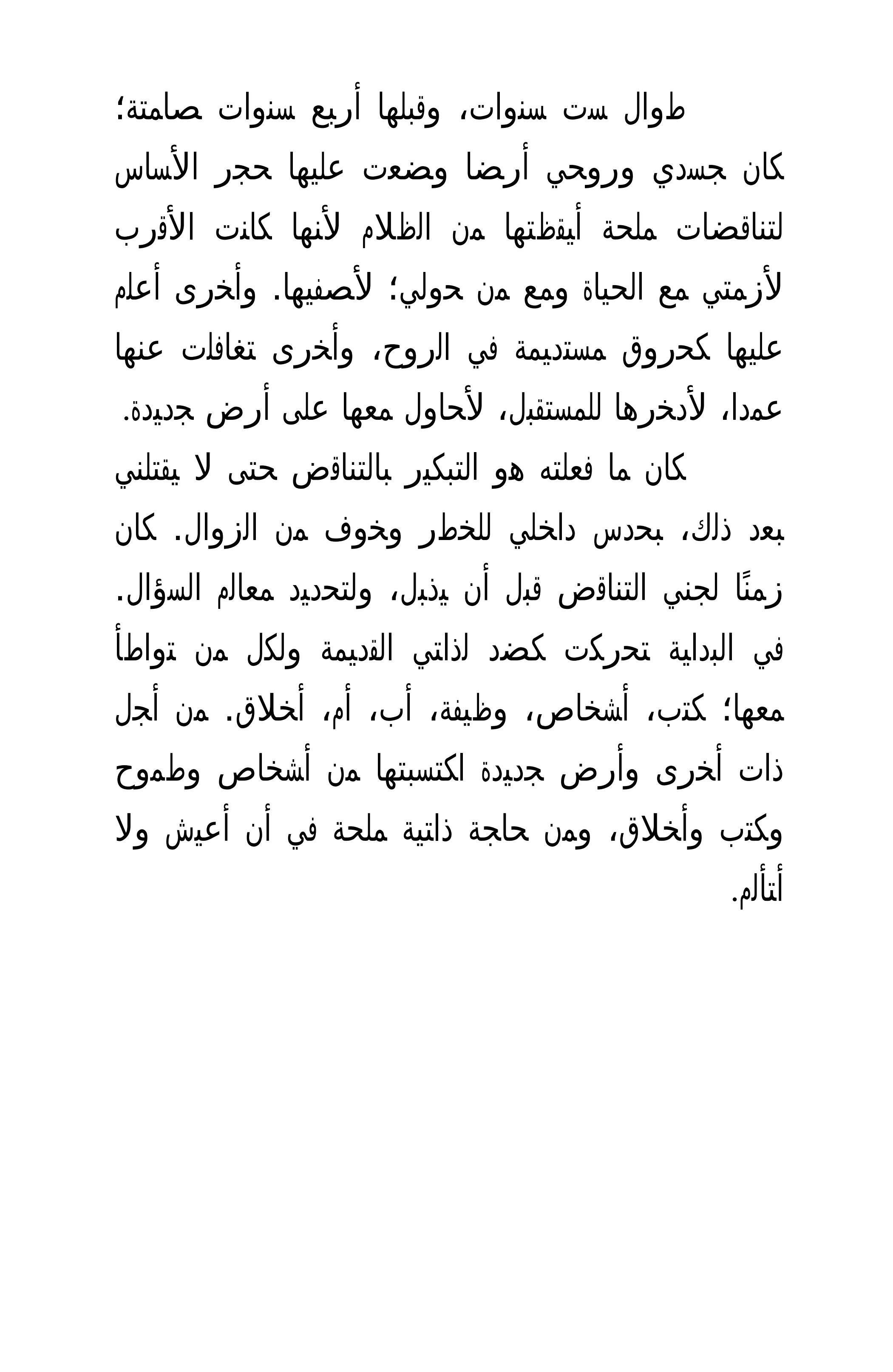
فرق كبير بين وجهه ووجه أخته. وجهه يعود لسلالة نقية من السلالات المسيحية، الأنف المدبب، العينان المحلقتان بسواد خفي، الوجنتان البارزتان، كل الوجه المسحوب بثقل الأسي إلى أسفل. أما أخته فلا سلالة معينة تحاصر وجهها؛ وجه امرأة تكون من مواطن كثيرة للجمال. يحتفظ بصورتها دائما، وعندما أخبرته كمن يفشي سرا بأني رأيت الصورة، قال"ماتتا برضه أخويا". صورتها داخل جواز السفر وفي أي مكان يذهب إليه، فقد

تأتي الفرصة ويصادف المقاول الذي سيأمره بأن يجهز حقيبته في الحال، وهو لا يريد أن يضيع هذه الفرصة التي انتظرها طويلاً ولا يريد أن يفقد أخته.

الصورة التي يحملها رجائي داخل جواز سفره، كالصندوق الصغير الذي تحمله روبيكا تحت إبطها، كجزء من الوطن، كوطن متحرك. لم يخرج رجائي من قريته سوى بهذه الصورة، بمنهج للتذكر. أخذ معه المجتمع الصغير الذي يعنيه كتلخيص لذاكرته مع المجتمع الكبير. علاقة نقدية مع المكان الأول ولكن مبررها الحاجة إلى الحنين. علاقة نقدية فيها الإنسان كرحال، مدفوعا بحاجته البدائية ويتحول وطنه إلى مجموعة من الصور والمشاعر الحزينة. نقد بدائي للمكان الأول سيمحو تصور الوطن كبناء لنمو وتماسك المشاعر وأيضا لتحققها وأيضا لنقضها، ويثبت تصور الإنسان- المسافة، وعلاقته بالبشر كوطن مؤقت. هناك محذوف مرعب في هذا التصور، تحمله رجائي. محذوف لن يفجره إلا الحنين.

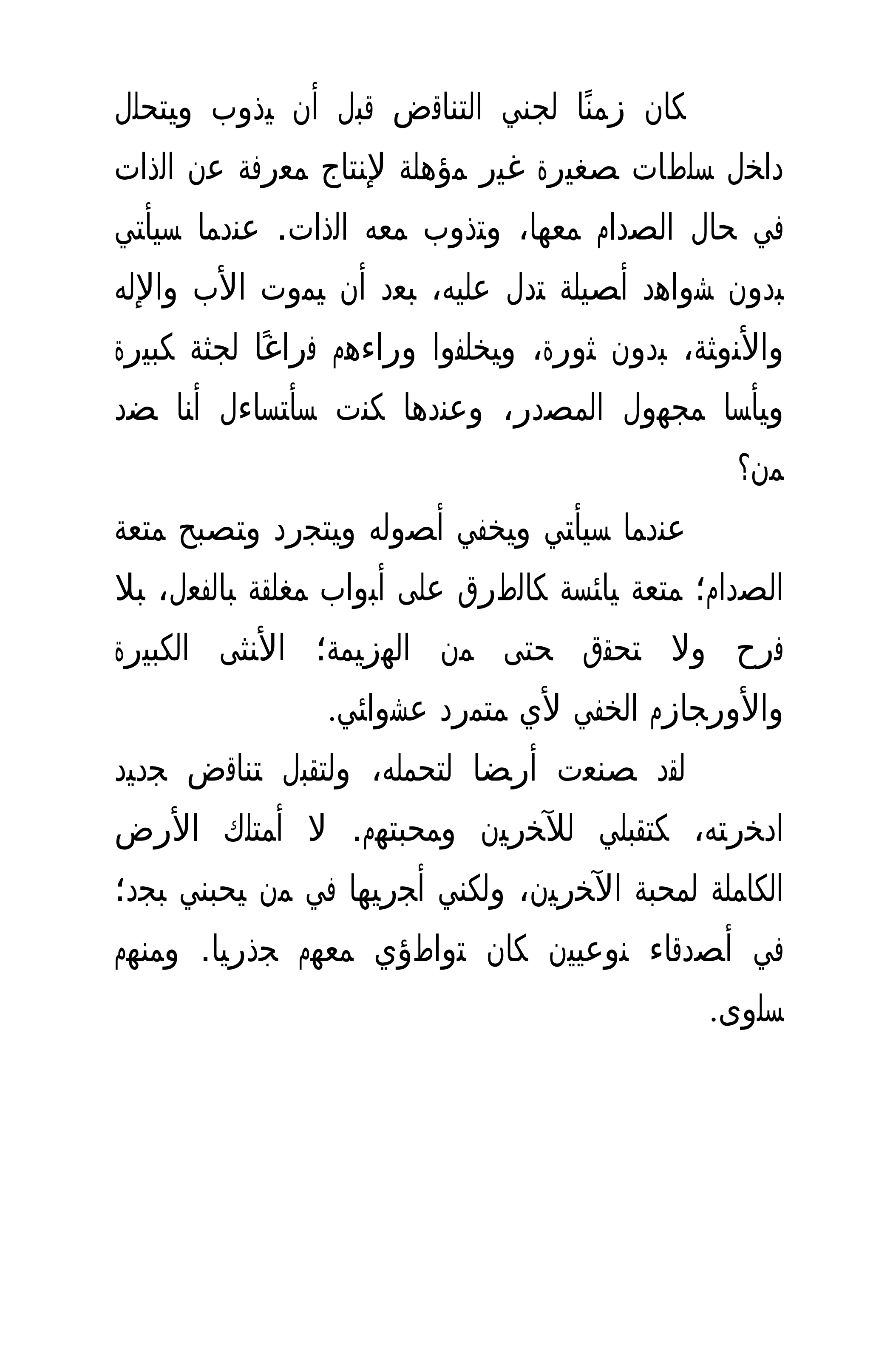
٥٣

وأنا جالس، على الأرض، عند "داود حبون" بجوار شباك صغير في مستوى وجهي، لم ينقطع عنه الهواء بالرغم من مناخ الصيف؛ تذكرت كلمات مايكل انجلو عن الضربة الصحيحة من النحات التي تكشف جوهرا مدفونًا في التمثال الكامن في كتلة الصخر. فتحة الشباك كانت الضربة الصحيحة في كتلة الطمي الحية، والبيت بكامله هو الضرية الصحيحة في كتلة الفراغ الحية. حتى علاقتي بذاكرتي والطرق بعنف على كتل تحتويها للوصول إلى بداية الخيط، إلى كنز الهواء، وبعدها يتحرك الوجود بدون ضربات متعمده، بدفع ذاتي يدّقق عبر الزمن للوصول إلى سياق للذاكرة، قد يكون لا شكل له عبر كل هذه الاهتزازت في الروح، ولكنه أساس الجمال: أنا قبل أن أكتب.



طوال ست سنوات، وقبلها أربع سنوات صامتة؛ كان جسدي وروحي أرضا وضعت عليها حجر الأساس لتناقضات ملحة أيقظتها من الظلام لأنها كانت الأقرب لأزمتي مع الحياة ومع من حولي؛ لأصفيها. وأخرى أعلم عليها كحروق مستديمة في الروح، وأخرى تغافلت عنها عمدا، لأدخرها للمستقبل، لأحاول معها على أرض جديدة.

كان ما فعلته هو التبكير بالتناقض حتى لا يقتلني بعد ذلك، بحدس داخلي للخطر وخوف من الزوال. كان زمنًا لجني التناقض قبل أن يذبل، ولتحديد معالم السؤال. في البداية تحركت كضد لذاتي القديمة ولكل من تواطأ معها؛ كتب، أشخاص، وظيفة، أب، أم، أخلاق. من أجل ذات أخرى وأرض جديدة اكتسبتها من أشخاص وطموح وكتب وأخلاق، ومن حاجة ذاتية ملحة في أن أعيش ولا أتألم.



كان زمنًا لجني التناقض قبل أن يذوب ويتحلل داخل سلطات صغيرة غير مؤهلة لإنتاج معرفة عن الذات في حال الصدام معها، وتذوب معه الذات. عندما سيأتي بدون شواهد أصيلة تدل عليه، بعد أن يموت الأب والإله والأنوثة، بدون ثورة، ويخلفوا وراءهم فراغًا لجثة كبيرة ويأسا مجهول المصدر، وعندها كنت سأتساءل أنا ضد من؟

عندما سيأتي ويخفي أصوله ويتجرد وتصبح متعة الصدام؛ متعة يائسة كالطرق على أبواب مغلقة بالفعل، بلا فرح ولا تحقق حتى من الهزيمة؛ الأنثى الكبيرة والأورجازم الخفي لأي متمرد عشوائي.

لقد صنعت أرضا لتحمله، ولتقبل تناقض جديد ادخرته، كتقبلي للآخرين ومحبتهم. لا أمتلك الأرض الكاملة لمحبة الآخرين، ولكني أجريها في من يحبني بجد؛ في أصدقاء نوعيين كان تواطؤي معهم جذريا. ومنهم سلوى.

٥٤

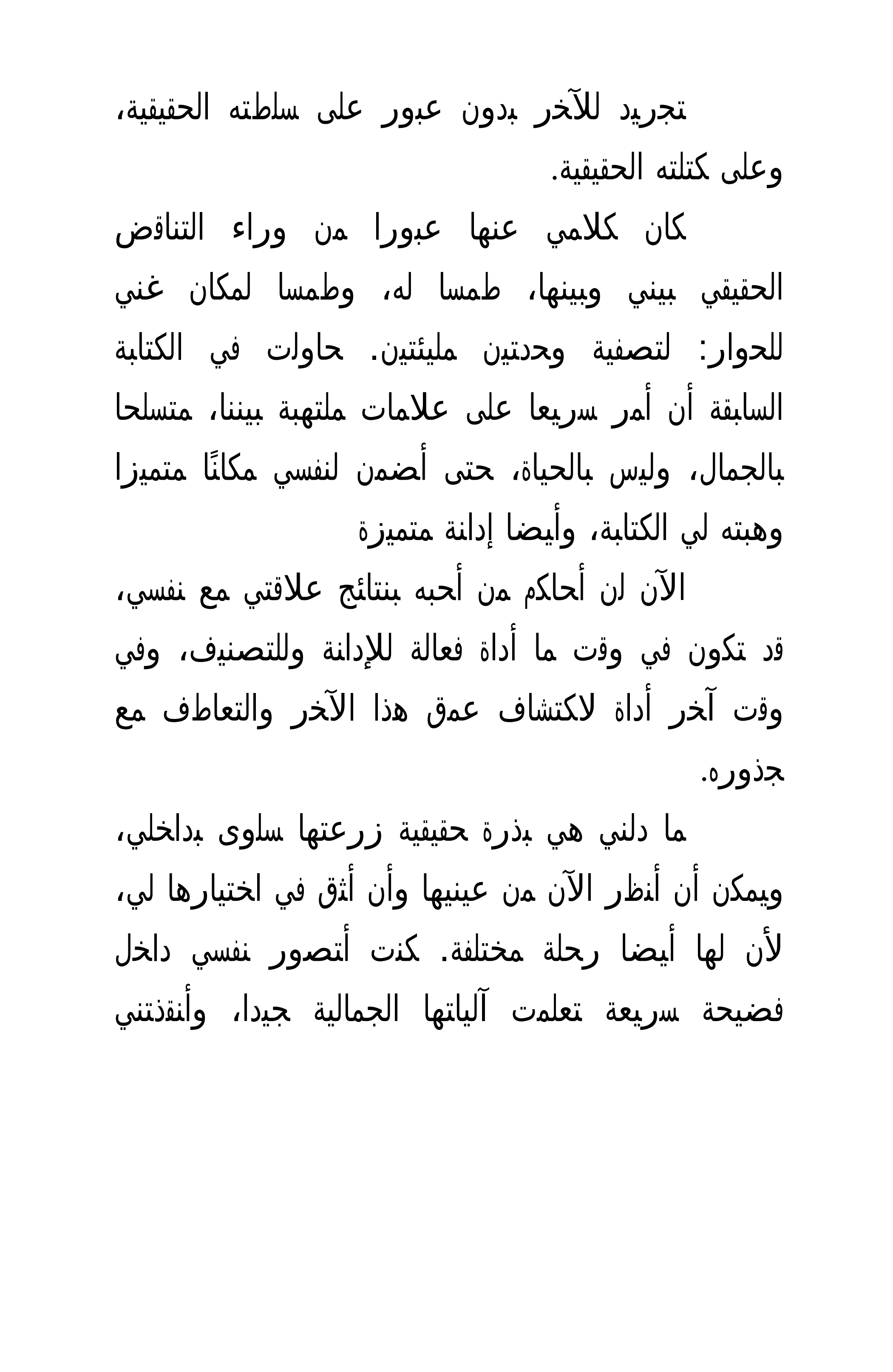
كتبت عن سلوى في وقت كنت مترددا ومدفوعا بطاقة هجومية من أجل إحيائي، كتبت" تمتلك بوصلة حساسة داخل تلقائيتها ولكن المجال الذي تتحرك فيه البوصلة يحتاج لإضافة أراضٍ جديدة لجغرافيته، كي تنشط البوصلة وتعمق مشاعرها تجاه الشرق والغرب والشمال والجنوب! بشرق حدسي يقع بين شرق الداخل وشرق الأرض المسطحة. وضمن هذه الاتجاهات الجديدة التي ستقتطعها لمشاعرها قد لا تشير البوصلة باتجاه قلبي، قد أصبح مطرودا من مجالها، ولأني غير حر أحاول باطنيا أن أجعل بوصلتها تحت تأثير المجال المتوسع لوجودي. وقد أصبح يوما ما حرا وأترك لبوصلتها حرية الحركة في الفضاء المحيط . وعندها قد تكون بجيبي طلقة الرحمة أو قلب آخر.

وكتبت:" ستتعذب سلوى معي كثيرا، لأني أحبها. وقد تفاجأ بهذا الكلام لأنها تؤمن بعكسه تماما، وكما أخبرتني بدموع حقيقية وبتفهم واسع؛ لم يركز عاطفته في بؤرة تشتعل، بل تسال كتيار هادئ من الضوء، وهي موهبتها وحظها في الحياة".

ما أشعر به في هذا الكلام أني كنت أحاول أن أضع العلاقة مع سلوى ضمن سياق من الأخلاق الجذرية التي تعترف ذاتيا بالخطإ حتى لا تترك ثقبا ليأتيها الخطأ من الخارج الاجتماعي. حتى أطمئن بأن ما جمعنا ليس اليأس أو الخوف. "الخطأ" في وحدته وليس في اجتماعيته، كأني كنت أنشئ علاقتي بها بنفس العلاقة التي أنظر بها إلى نفسي. نوع من استنفاد الطاقة أو الخوف؟ بتمليك الوجود المشترك لمنهج أكبر، وضدي، لأنه كان مقياسا لإحيائي ولتفردي ولقياس الحقيقة والآخرين.

خاف هذا الكلام حس بالتخلي! قلب هذا المنهج، ولكنه تخل يمارس كملاذٍ وكخوف من أي امتلاك عندما أتنبأ بأنها ستحب آخر غيري وأنا سأحب الرصاص.

التخلي كضرورة لتنشيط الوجود، وليس كقراءة للمستقبل. لذا جاء حديثي عن سلوى في مكان مجرد، وعاطفيا، عبأته بضعفها لأثبت جذريتي التي ستتحول إلى ملاذ أخلاقي جامد، كأنها قوتي الدافعة الوحيدة. ودائما حركة المبادرة تبدأ من عندي وتنتهي عندها وليس العكس. ميزان مختل للاعتراف كتجربة، إذًا لابد أن أسلم بطهارتها لأبرر لنفسي أني سأترك هذا الكنز مدفوعا بطهارة أكبر، من أجل أن أعدل الميزان في الحديث. مزايدة لا تضع الذات في حسابها أنها قد تكون في المكان الأدنى؛ الكفة الصامتة للميزان، وأنها ستواجه بشخص أعمق، تنتظرمنه أن يتخلى عنها.



تجريد للآخر بدون عبور على سلطته الحقيقية، وعلى كتلته الحقيقية.

كان كلامي عنها عبورا من وراء التناقض الحقيقي بيني وبينها، طمسا له، وطمسا لمكان غني للحوار: لتصفية وحدتين مليئتين. حاولت في الكتابة السابقة أن أمر سريعا على علامات ملتهبة بيننا، متسلحا بالجمال، وليس بالحياة، حتى أضمن لنفسي مكانًا متميزا وهبته لي الكتابة، وأيضا إدانة متميزة

الآن لن أحاكم من أحبه بنتائج علاقتي مع نفسي، قد تكون في وقت ما أداة فعالة للإدانة وللتصنيف، وفي وقت آخر أداة لاكتشاف عمق هذا الآخر والتعاطف مع جذوره.

ما دلني هي بذرة حقيقية زرعتها سلوى بداخلي، ويمكن أن أنظر الآن من عينيها وأن أثق في اختيارها لي، لأن لها أيضا رحلة مختلفة. كنت أتصور نفسي داخل فضيحة سريعة تعلمت آلياتها الجمالية جيدا، وأنقذتني

بحق، والآن أتخيل فضيحة طويلة الأجل، من أجل التمثال المشوه؛ الجمال المر، الذي احتفظ به داخلي. فضيحة الحياة نفسها وليس أنا فقط.

طوال رحلتي في سيوة كانت أمي حاضرة في مكانها الصحيح داخلي، لم أقلق عليها لأني أعرف بأنها هناك تعيش وأنا هنا أعيش، وطالما لم يتسلل الخوف أو القلق، فلأن الحركة. التي خلقها السفر. فتحت مكانًا تحت القلق، ولم أستقبلها في ذاتي مباشرة. حضرت وهي مجردة ضمن حاجتها الماسة: التضحية. ضحت كثيرا لكي أحبها لأني الوحيد ودون أخوي الحِنَين، وكما تذكر دائما عند حديثها عن تغيري وفقدي لهذه الموهبة. كنت أسرح لها شعرها وألقبها بملكة جمال شارع "إبراهيم راجي"! شارعنا. لأنها كانت جميلة بالفعل، ولها صور وهي صغيرة تحتفظ بها في غرفتها تحقق فيها هذا الجمال بعمق، وأعتقد أني سأطلب من أخوي بعد موتها أن أحتفظ بهذه الصورة. فكرت في هذا الحوار كثيرا وتخيلت مكانه والرجفة التي ستقبض على حنجرتي والدموع التي ستتدفق

بسهولة. وأعتقد أن "ياسمين " حفيدتها ستنازعني نفس الرغبة، ولأول مرة لن أحقق لياسمين رغبتها.

موتها منذ زمن بعيد هو الحقيقي والجارف، لذا حفرت فيه بعمق، وصنعت له مشاهد، كأن وجودي لن يتحقق بألم أقوى من هذا الألم. وعندما اعترضتني آلام أخرى لم تجد أرضا إلا بأن أنفي موتها، أتخلى عن وجود نمي بموازاتها، وأحاربها هي شخصيا وأصم قلبي عن بكائها من مستقبلي الذي يضيع . كانت تمتلك أرضا كبيرة داخلي، توسعت الأرض وصادرت الأراضي الأخرى. وأي أرض جديدة أمتلكها هي حرب معها. ولم تجد البذرة التي ألقاها أبي مصادفة صباح موته من شهر فبراير أرضا صالحة لتعيش وتنمو، أو نمت ضمن أرض أخرى! أرض للتوحيد. وبموته، مباشرة، بحثت داخلي فلم أجد سوى بكاء لا جذورله سوى التعاطف. حاولت بعدها بالتذكر أن يكون بكاء حقيقيا ومتساويا مع الذي فقدته.

وعندها سأستطيع أن أتناقض مع جزء من ذاته، مع خريطة الضعف التي كانت تسيطر عليه.

لقد كانت أمي إقطاعية حتى في التضحية، ولم يكن أبي قادرا على أي تضحية؛ بعد أن فقدت عائلتها كل أملاكها في حروب صغيره للتجارة ولم تخرج من هذه الحرب سوى ببرواز مكتوب بماء الذهب، لقصيدة كتبها أحد الشعراء لجدي، عضو مجلس النواب، وبيت من ثلاثة طوابق نسكن به، وبقلب مكسور لأمي، لم أفلح في ترميمه، وورثت خسارة لم أنعم بمخاطرها. بعدها دخلت العائلة في حرب مع الحاجة، ولأنها حرب غير متكافئة؛ تسلحت بالتضحية وبالجذور القديمة. وتخلّت أمي عن المدرسة الفرنسية التي كانت تدرس بها، وتخلّت عن رامبو وبودلير وكورني. وتخلّت عن أن تختار أبا لنا من "طبقتها."

الحمام كثيف، في السوق وفي الشوارع الجانبية، هو المفاجأة الحقيقية التي تكسر شعاع البصر المستقيم، وحدة الحياة المكشوفة والسير العاري. للحمام حرية أكثر من أي فرد هنا، لأنه منسي وخارج عن أي تصنيف لحركته. قديم، ولدت به الواحة كالنور. لا يؤكل، لذا فذكورته معدومة وكذلك أنوثته. تجده على السطوح وفي الفناء الداخلي للبيوت وفي غرف الطهي، قريب من النساء. لا يمتلكه أحد ولا نزاع يتكون حوله أو سلطة تثير ذكورة الشخصية نحو الحيازة؛ كمنشط خفي لها.

وكما تفرقت الأنوثة من أجساد النساء إلى هشاشة البيوت والروح وطبقة شفافة من الألوان الجدارية، ولم يعد للرغبة كائن يعلن عنها أو يمثلها، ولم يعد للجنس مخزون شبقي لاستمرارالمتعة، فلجأ أهل الواحة إلى"المثليـة" لاستهلاك أي مخزون فطري يحرك الشخصية ويدخلها في دورة الإنتاج. تفرق الجنس كحس إيروتيكي يعتمد عليه أي

حلم بتغيير مستقبلي. انحرفت المثلية من كونها عزلة عاطفية مهددة لأي سياقات أخرى للعاطفة؛ إلى عاهة جماعية معلنة حولت الأطفال إلى نساء. جنس بدون تضحية وبدون مجتمع يهدده،. جنس لا يشير إلى تعدد في أساليب الرغبة، بل إلى تشوه، في مصفاة الرغبة.

وغياب النساء عن الحياة المعلنة ليس من أجل إخفاء البئر السري الذي سيشربون منه، ولكنه عرف موروث. غياب لا يستر سرا وراءه أو جسدا فادحا بالرغبة. أيضا لأن الأطفال يمكن أن يشغلوا تلك الحياه المكشوفة بأنوثتهم المستترة وبدون تخلٍ عن الجذور المحافظة. غياب شفاف.

الرغبة الجديدة لم تهدد جذور الرغبة الموروثة، بل عقدتها، وتعقد معها شكل الشارع والظلام، ومرور الأطفال من بيت إلى آخر مصحوبين بحراسة وألوان الملابس التي لا تميز بين جنسين من الأطفال.

نفس المثيرات التي تحرك الحديث في ليل المقهى؟ وجدتها كما هي بعد أن عدت إلى الواحة بعد خمسة شهور، جعلتني صديقًا"لعم عبده"، جعلتني أحد المفقودين الذين سيسأل عنهم وعند عودتهم سيتقدم منهم بحركته المستقيمة وبابتسامة وبلقب ظل يردده في سره كثيرا: "أهلا يا باشمهندس."

لمبة النيون التي لا تضيء مباشرة وحيرة صاحب المقهى أمام هذا اللغز الذي يتكرر كل يوم ولا يجد له حلاً. وينهمك في الحديث عن الكهرباء، أثناء اختباره اللمبة، والمرات التي تذوق فيها مرارتها، ودائما "عم عبده " يتلقف منه الحديث ومن أي متحدث آخر لا يجد من يصل حديثه، بحنان، بحرص على حياته من الكهرباء الملعونة. بجلبابه الأبيض الطويل وفوقه جاكت بدلة قديمة، كموظف على المعاش في بلدة بعيدة. لا طبقة تحميه بمنجزاتها، كم حدثني، سوى الالتصاق بالحاجة الماسة،

وأي وفرة ستتسلل إلى حياته ستكون رقيبا عليه. وأول قطعة حلوى أهدتها له أمه لم يأكلها كلها، ادخر نصفها، ليوفر من حاسة تذوقه. سوى الآخرة يسهب في الحديث عنها، لأنها مشاع ويمكن أن تتحقق داخلها الوفرة السهلة في التخيل والخبرة، وبدون إيذاء لأي حاسة من الحواس. يعرف عن الآخرة حكايات مفصلّة ويمكن أن يكون أحد أبطالها أو أن يتخيل ذلك، ومن حوله رواد المقهى بعد يوم طويل من العمل، يحكي لهم ويخلع نظارته أكثر من مرة أثناء الحديث ويدعك عينيه، كأنه يجلو السحب التي تراكمت بينه وبين السماء. حدثهم عن القرين؛ الروح الشقية للمؤمن، وعن العقد الثلاث التي تطارده عند قيامه من النوم لصلاة الفجر. أما "عم محمد" فقد حدثني عن الإيمان بدون دين أو صلاة أو صوم، وعن الليل الطويل، وعن الوحدة، الفلك الأسود الذي تدور فيه روحه وعن الجدران صديقه الوحيد. تخيلت الحبل الذي يتسلقه في الفجر ويفك عقده الثلاث، لا ينتظره ملاك في نهايته،لا

أعرف ماذا ينتظره، إن لم يكن ا فمن يكون؛ إن لم يكن " إيمانًا ما".

وخاف "عم محمد" مباشرة تقف طبقة متميزة وتاريخها المضاد للحاجة، وتاريخ من السفر وسبع لغات خاطت بلسانه ومعها أضاف سبع طرق للحياة ولتخيل الآخرة .لا ينتظر من أحد الحديث بل يفرضه. هل يرى أحدا أمامه أو أحدا بعينه؟ وأحيانًا يسرق منك الكلام ويعيده هو بلسانه، فعلها معي حتى لم أعد أعرف من منا صاحب السؤال. أي إضافة من أحد يطوعها لصالحه ولصالح التعريف بنفسه تبعا لرغبة من يتحدث معه. لقد قدمت له هيكلاً ليبني به ذاته أمامي ويدعمه أثناء حواره الطويل معي. وهي من أحد "أخطائي الصحيحة" في فترة ماضية. أي إضافة هي مكسب مؤقت له، هل سيستثمره مع أحد غيري ويكسب به صديقًا آخر غير قادر على أن يعرف نفسه ويخجل منها؟.

في كل فقرة من حديثه يسرب؛ خناقة في بار، قلبا مجروحا في بلد أجنبية يسير تحت المطر، يدا مجروحة من زجاج كأس الشراب وإحدى ابنتيه تضمد له الجرح، لغما انفجر في صحراء العلمين عندما كان يعمل مع شركة أجنبية للتنقيب عن البترول. قد تكون تجربته مع الحياة لم تلمس شيئًا عميقًا، لأنه خلق لنفسه مجتمعا متعددا يتحرك فيه، كذلك إنسانه؛ إنسان للتنقل. أليس التعدد هو حلم للمستقبل حتى ولو كان المستقبل هو يوم واحد فقط، هو أن لا تحتل الذات قدرها العابر دائما بموازاتها، بل تنحرف عنه بقدر اتساعها؟

عندما قابلت "عم محمد" بعد عام في الإسكندرية بصدفة محضة؟ كان متعجلاً، كأنه لم يلحظني. استوقفته بعد أن افترقنا بخطوه، عدتُ إلى الخلف وصحت "عم محمد" لم يحاول أن يخلق بيني وبينه أي لحظة عاطفية، كأننا بالأمس تقابلنا وسنتقابل غدا. هل هذا واقعي؟ كانت مقابلة مفتوحة داخل سياق متسع للتعارف، لم تستمر أكثر

من خمس دقائق. مقابلة بعدها سيكون لها مدلول آخر عندي، عند توثيقي للرحلة. وبنفس الحاسة المتعاطفة التي استقبلت بها حواره ونموذجه في الحياة، بل ساهمت في صناعته؛ أيضا لم أتعاطف معه، بمسافة استمرت بعد اللقاء، وفكرت في أسبابها. وأرى الآن أنه حاول أن يفرض انطباعا معينًا لدي، مستغلاً نقطة ضعفي التي كانت ظاهرة لدرجة أن يلاحظها هو المنفصل عن كل ما حوله، قد يكون بذكائه. كان يريد أن يؤمم انجذابي له، خاصة بعد أن أسهبت في الحديث عن أبي.

لم أتعاطف معه إلا عندما صرخ "زوجتي توفت صبحية ٢٧ رجب ١٩٧٧ "، لم تكن مفاجأة أن تكون زوجته ميتة وهو في هذا السن، ما تعاطفت معه أنه ألصق نفسه بالموت، وأصبحنا متساويين، ويمكن إعادة تأويل الحوار بيننا بعد الاعتراف بهذه الخسارة المتبادلة، ويمكن كذلك البحث في الفرق والمسافة التي تفصل مجالين للموت. لقد حدد لي، بقصد أو بدون قصد المجال الصحيح

لتقبله. هو حاضر ضمن سياق الموت منذ هذا التاريخ، بينما أنا أبحث عن اجتماعية ضد الموت، اجتماعية تعترف به ولا تتنصل منه. أخفى علي موته حتى و'لو كان يعمل في سيوة مديرا لفندق، حتي ولو قبل سائحة إيطالية في فمها أمامي، ولو تلقى خطابا من سائح ألماني، أيضا فتحه أمامي وأخذ في قراءته وترجمته لي. الأهم أنه كان يريد أن يعزل الفندق عن كل سياق المكان، هو مكاني الأول في الملاحظة، وأن لا تتسرب للفندق أية أخطاء يعيشها المكان، يريده فندقًا خمس نجوم وأن يقدم أهل البلد "البهايم" كما قال؛ الشاي للنزلاء متراجعين خطوة إلى الخلف ويدهم التي تحمل الشاي خطوة إلى الأمام. كان الفندق هو البناء المادي لانفصاله عن الإسكندرية، وعن سيوة، أيضا، حلم لا يجد له مكانًا لتحققه. قبر إرادي لم يزينه إلا بأخلاق الفنادق الخمس نجوم. ولم يعد آخر غائبا يعنيه ليثبت له حبه في الفجر، ولم يستبدله بمواعيد ذاتية للحب، برسالة من صديق حميم، بفيلم يتذكره. هل تكفي زوجته الميتة

لتكون هذا الآخر الغائب. لم يكن أمام "عم عبده" سوى هذا الآخر الغائب ليبادله الحب، لأنه لم يصادفه في حياته، كما حدثني أيضا، فسخّر له كل مدخرات حواسه.

لو كانت له وفرة حقيقية اقتصدها من الحياة في غير أرض الحاجة أو الخوف من المستقبل؛ لأحب الناس في سيوة ولاختار دورا أكثر تواضعا من دور الشخص" المثالي" الذي يريد أن يغير الحياة للأفضل والآخرين لا يفهمون. وأيضا لاختار بلدا آخر تتسق مع هذا الدور ومع لغاته السبع. يعيش في سيوة لمفرده. وضمن تأويل آخر، بدون الحاجة لمحاسبة دقيقة له، قد يكون قد اختار سيوة لتساويها مع وفرته في الموت، بهدوئها المرعب وقلة الحياة فيها.

كان "عم محمد " مجرة مغلقة مركزها هو الموت، وأن أبي أيضا مات في مثل سنه. لم تجمعنا سوى نقطة ضعيفة في داخلي استغلها جيدا وخدعني بأنه حي حتى الآن وأن له حلم بتطوير كل سيوة. لماذا أحاسبه كل هذا

الحساب الدقيق، لماذا لا أعتبر أن التناقض هي سمة تلك الفترة من الحياة ويجب أن تُعامل بمرونة كما يعامل الأطفال.

ولكني أعود معه إلى مكا نه القوي وكتلته الحقيقية، منذ عام ١٩٧٧ منذ سبعة عشر عاما، عندما كان عمره في بداية الخمسين. عندما صرخ لي بأن" سيوة غيرتني"، عشان عشت قبلها حياة ماكنش يجب إني أعشها ولكن عشتها من الوحدة اللي أنا كنت فيها"، سر وراء هذا الكلام وندم على حياة وتكفير عنها بالنفي، لم يتحمل موت زوجته، لم يكن بحياته متسع لفقد وأين بناته بعد موت أمهما. أيضا يحمل نصلاً حادا في روحه،" عم عبده " يستخدم النصل ليستأصل أي وفرة نتيجه للخوف والحاجة، أما "عم محمد" فقد خلق النصل من ذاته من سوء علاقته بالحياة، لم يترك أي لقمة ناقصة على مائدة الطفولة لتجري وراءه بعد ذلك، لم يترك بقايا طعام. لابد أن نترك

شيئًا ما وراءنا، حتى ولو كان صغيرا، حتى وإن لم يأكله أحد، ولكنه سينمو تبعا لقانونه.

لم يكن مسيطرا على أي وفرة لديه، وكل لعب الطفولة الجميله قد هشمها. قد يكون قطع مسافات هو وزوجته، أيام ذهابه إلى مانشستر، بالباخرة وكان الفاصل بين كل بلد وآخر خطا أزرق من المياه، ولكنه عاد الآن إلى جذر واحد، ومنذ سبعة عشر عاما، لا يغذيه سوى الموت، منذ صبحية ٢٧رجب١٩٧٧، وقبلها بكثافات أقل.

كل هذا الكلام عن" عم محمد" هو ما سمح لي "الزمن " الذي قضيته معه، وما سمح لي بعلاقته بذاكرته عندما سردها علي، وبرصيدي الحي عن أبي. ولكن روحه الحقيقية، وهي دائما خارج أي تفسير، التي لم يتح لي" الزمن" أن أتعرف عليها؛ كانت معلقة في برزخ بين طريقتي في الحديث عنه، أو هي خليط غير محسوب بدقة لحياة.

ليست روحه مزيجا بين المتعة والموت، من السلطة والضعف، أو من.....،.....، ولكن يمكن أن أحدس بالبناء الآن؛ كل صفة في روحه تحتل جزء لا يعرف الصفة الأخرى، ولا جسر بينهما، عزلة الصفات ، وبنسب لا أعرف أيهما التي ستضع الراية على المساءات القادمة. لا سياق "يجمعها" تلك الصفات المتضادة، سوى التعالي على الآخرين، سوى الرغبة في الحديث عن الانتصار ومعه يعترف بهزيمة فادحة. هل يرى أن

اعترافه بهزيمة بدأت من موت زوجته، هو علامة لانتصار حققه على نفسه بأنه ما زال يعيش حتى الآن، لانتصار تسربت بعض مساوئه في علاقته مع الآخرين.

طريقة في الحياة.

وعندما قابلني "عم محمد" في الإسكندرية، وعندما تراجعت خطوة إلى الخلف بتردد أنه لم يعد يعرفني، أو أني عابر مثل أي سائح يمر عليه، سوى أن اسم أبي كان مطابقًا لاسمه تماما، وأن أحد أقارب أمي هو الذي أنقذ حياته وهو طفل.

..."وقد علمت أن هذه الكلمة المشرفة من أفضل الأذكار وأشرفها عند مولانا جل وعز فينبغي للمؤمن أن يعتني بشأنها يتوضأ لها ويلبس ثيابا طاهرة ويقصد موضعا طاهرا كما يقصده للصلاة وليتحر الخلوة والانفراد عن الناس ما استطاع ويقصد الأزمنة المشرفة كما بعد الفجر إلى طلوع الشمس وبعد العصر إلى غروبها أو ما يتمكن منه بعد ذلك وليفتتح ورده بالاستغفار ولو مائة مرة ليغسل باطنه من أدران المعاصي....

ولهذا كانت الكلمة المشرفة جامعة بين التخلية والتخلية فيخلي الذاكر أولاً قلبه ويخطر من جميع الخواطر الوهمية وجميع الكائنات التي استعبدته من جاه و مال ونساء وبنين ودراهم ودينار ومدح وذم ونحو ذلك بقوله "لا إله " أي ليس ثم سوى مولانا جل وعز من جميع الكائنات على العموم من هو غني في نفسه أي يفتقر إليه

في أثر ما حتى يستحق أن يعبد أو يخاف أو يعول عليه في أثر ما بل جميعه عاجز أتم العجز عن إيصال أمر ما إلى نفسه أو إلى غيره فوجب طردها جميعها من القلب إذ وجوها كعدمها بلا شك ولا ريب وما وجد مع بعض تلك الأمور المخلوقة كالطعام والشراب والمياه و الثياب والنساء البنين والأموال والنيران والسلاح والظلمة والجنة والنار من المصالح واللذات ومن المفاسد و الآلام.

طوال سنتين قضاهما أبي نائما في المرض. أسدل الظلام نهائيا، ولم يرغب في أي حديث يوقظ حاسة للحياة في روحه. فقط يعيش ليستمع. نوم بعينين مفتوحتين، كان النوم هو الصيغة المناسبة لقلة حيلته في التمتع بالحياة وبفنجان القهوه في السابعة صباحا. خلال السنتين دفعني أبي لكي أكون أبا له ولصمته. كنت آخذه للسير فكان يتوقف كثيرا في الطريق ويتدخل أصحاب المحلات بالكراسي والماء والشفقة؛ ليتألم من قدميه اللتين يجرهما خلفه كأول عضو تنفصل عنه الحياة

وكان يرفض الجلوس أو الشرب من المياه التي تقدم له. كنت أحدثه عن أهمية السير وأحكي له عن مغامراتي على البحر وأن كثيرا من الأفكار السوداء قتلها السير، وأن محبتي له قد بدأت تتكون أيضا على البحر. كان يستمع فقط وكان علي أن أقوم بدور لسانه؛ عملية بث

واستقبال تحدث داخلي وتعبر به كوسيط مهزوم، فقط تعبر به وتعلق كلها تواريخ الشفقة المسجلة في الهواء. كنت حريصا في حديثي ألا أجرحه ولو من بعيد، ومتنازلاً أحيانًا كثيرة وأتركه يعطي سائق التاكسي، عند عودتنا، ما يقدره هو، ثم أكمل للسائق بقية الحساب بدون أن يشعر.

خلال تلك الفترة نسي الصلاة التي واظب عليها عدة سنوات بعد المعاش، بإلحاح صامت من أمي، بأن تترك الحمام مبللاً بالدعاء وبخيط من المياه تجره في يديها إثر كل وضوء ويظل يرافقها عبر الصلاة، وبفراغ أكثر وطأة وبيوم يبدأ من السادسة صباحا. ولكنه لم ينس القطط ، كانت تنتظره في الثانية ظهرا، بعد الفتحة المعتادة للباب وصفيرمبهم ليس له علاقة سابقة بالقطط. بعد موته انتظرت القطط طويلاً أمام الباب، وانحناءة ظهر يصعد السلم عائدا من نهار الحديقة وظلال شجر تتحرك عليه. لم يهتم بالقطط إلا في الأيام التي نطهي فيها السمك، وفي الأيام الأخرى لا تدخل القطط في رحمته. أثناء مرضه،

كنت أيضا أبا للمواعيد المتأخرة للأدوية، أدخل عليه الغرفة بدون أن أضيء النور، لأحفظ لعينيه وسطًا تعودت عليه، ويوما دخلت وتشممت رائحة حمض فطري وتعثرت قدمي بمياه بجانب السرير، يومها لم أعطه الدواء، ولكني كنت واثقًا بأنه يراني بحاسة جديدة اكتسبها خلال مرضه، وأنه لاحظ ترددي ولكنه لم يشأ أن يضبطني متلبسا بمحبة هينة له.

وقبل أن يموت بدقائق، وقبل هرعي في الفجر بحثًا عن عين للشفاء؛ ناداني لآخذه إلى الحمام، كان جسده ثقيلاً ولم أقدر على حمله، فأرحته بمساعدة أمي مرة أخرى فوق السرير، على ظهره وبالروب الأزرق الطويل، وهو الوضع الذي لن يغيره بعد ذلك؟ بنفس الأفكار، بنفس البول، وبنفس النظرة الزائغة التي وزعها بين مستقبلي وبين أمي بالتساوي. لن يتغير شيء سوى أني أنا وأمي سنتحايل بالمقص ونمزق الروب ونمرره من تحته، وقد نرفع ظهره، قليلاً، وسنلبسه ملابس جديدة

ليقابل بها ابنه الكبير وأحفاده وزوجات ابنائه عندما يلقون عليه قبلة أخيرة، ولن يقدر أحمد أخي على إكمالها وسيخرج مسرعا من الغرفة.

الأب اليتيم الذي لم ير أبا، فعاش في رعاية خاله. أو هذا ما أشاعه عن نفسه ليحمي نقطة ضعيفة في الخلف، سرا كان يجب أن يستره، وأن أباه لم يمت ولكنه أماته لأنه انفصل عن أمه وتركه وهو صغير، بأب غائب. فتكونت أبوته بعرق جبينه، من الصفر، بدون تعليم أو رصيد لها، بدون أب يقف ضده أو يحبه فكان ضد نفسه على طول الخط. حذف غير مقصود لرأسمال سابق. كان عصاميا في أبوته، فتكونت مع غرائزه البدائية، مع الرحمة والقسوة والملكية والبكاء الشديد، خاصة في عيد ميلاده الأخير، وذكورة طافحة في صوته، كان يستخدمها كجدار. انقسم ولم يجد أي سياق للتوازن سوى العودة إلى الطفولة، بكل مكانها، وأن يطلب المساعدة من الآخرين وأيضا يقسو عليهم ببكائه. لقد استعاد أرضا أنثوية خشنة.

في شبابه عشق التمثيل، وحكى لي عندما شاهده" أندريه جيد" وهو يقوم بدور في مسرحية" انتيجون" وعن إعجابه الشديد بالرغم من أنه لا يعرف اللغة العربية. وعن صداقته القديمة ل" محمود مرسي " والتي لم تستمر لسفر محمود مرسي إلى الخارج لاحتراف التمثيل، أما هو فقد قنع بالزواج.

لو رجع أبي بعمره خمسين عاما، لكان سيتخرج من كلية الآداب بدون زميلة يحبها، ومتأخرا عدة سنوات لحبه للتمثيل ولانقطاعه نظير العمل مع خاله في التجارة، ثم يسافر في رحلة إلى الخارج يعوض بها الرحلة التي فقدها من قبل، وهناك سيتعرف بصديقة نمساوية، سيتبادل معها خمس رسائل ويخبرها في آخر رسالة بأنه قد تزوج، وأنه قد تخلى عن كل المسرحيات التي قرأها بالإنجليزية ولم يعد التمثيل هاما له لأن زوجته تريد موظفًا بمرتب ثابت ولا تريد "فنانًا، وسيتخلى أيضا عن كل الصحف التي كتبت عنه، وكما حدثني ذات يوم عندما صارحته بأني

سوف أخلص للكتابة. ولكنه قد يغير من خطته قليلاً ويتخلى عن قسوته تجاه زوجته أو يجعلها أكثر نضجا، بعد أن أثبتت له صدق يديها ومعدنها النقي طوال سنتين على فراش المرض، وقد يتخلى عن نظرته السوداء لمستقبلي.

كل الأصدقاء القدامى الذين تربوا معه منذ المدرسة الابتدائية كان يحتفظ بهم لآخر حياته وكانوا يحتلون يوما هاما في بيتنا. كانوا جميعا أولاد تجار ولكنه امتاز عنهم باستكمال دراسته حتى نهايتها أما هم فلجأوا لطموحات أخرى. أما الأصدقاء الذين اكتسبهم من الجامعة وما بعدها، فجميعهم كانوا يحملون بذرة ناضجة للأرستقراطية وكانوا أيضا يحتلون أياما هامة في بيتنا. كل ملابسه وعاداته وثقافته كانت منقسمة بين هاتين الطبقتين اللتين شغلتا خريطة حياته، والطبقة النوعية التي صنعها لنفسه، بالإضافة إلى أمي وعائلتها. وفي المرض، كان أيضا عصاميا، بدأه من الصفر ولم يدخر له طوال

حياته، لأنه كان يتمتع بصحة جيدة تحسده عليها أمي بحب، صحة من يدخن بحساب ويأكل بحساب ويسهر بحساب. ومشاجرات طويلة حول أنبوبة معجون الحلاقة التي يستعملها أخي أحمد من المنتصف.

وجدته بانتظاري وراء الباب مباشرة، في الصالة المظلمة. انتظر طويلاً صوت المفتاح ليعتذر لي، وليبكي أمامي ويحاول أن يشرح لي أسباب قسوته وأنني لا أفهمه لأنني لست أبا، وأن أصدقاءه الأغنياء ليسوا أحسن منه، وأنه أيضا صاحب رحلة ومشروع مختلف في الحياة، وكرامته ومبادئه هما أهم لديه من كل كنوز الأرض، وأنه كان يعطي دروسا مجانية لتلامذته الفقراء لأن أخلاقه لا تسمح له بأن يستغل أحدا حتى ولو كان غنيا، سوى أنه عصبي قليلاً وحساس لأنه "فنان " يحتاج لمن يتفهمه.

عندما كانت يدي صغيرة ولا تعرف القسوة وضعتها كاملة في يد أبي وذهبنا إلي السينما احتفالاً بعيد ميلادي. وعندما تعلمت القسوه ذهبت بها أيضا بصحبته إلى الطبيب النفسي، لإدانته، وسحب من الدموع تكثفت على نظارته عندما طلبت منه أن يتركني وحدي مع

الطبيب، تحرك متثاقلاً كإله يترك أحد أبنائه للاعتراف، ولغيره. وطوال الطريق من العيادة إلى البيت اشترى لي قميصا جديدا، وكي أرضي عينيه أدليت له ببعض اعترافات صغيرة عن "علا" زميلتي في أولى جامعة.

لم أكن أكرهه كما قال لأمي ولكني كنت متعاطفًا أكثر مع يده اليسري وأصابعها الضامرة، متعاطفًا أكثر مع كل من يحاول أن يبادلني شعوري بالوحدة المهم أن تكون المبادلة في هدوء.

لم ينتظرني وراء الباب في الصالة المظلمة ليعتذر لي عن كلامه بأن أبحث عن بيت آخر يعول شابا عاطلاً عن العمل. كان يؤمن نفسه لأن أي خسارة داخل مشاعره المعسولة تدميه، بعد أن خسر الأخوين الكبيرين لي في بيوت أخرى وفي بلاد أخرى. لم يكن يمتلك أي وفرة في الروح ليؤمن بها على مكاسبه وأولاده، بل كان يفقدها بتهور، بحس فنان وحيد لم يتحقق. ويوم عودتي من السفارة الفرنسية فرحا لقبولهم أوراقي وتعني أني سأسافر

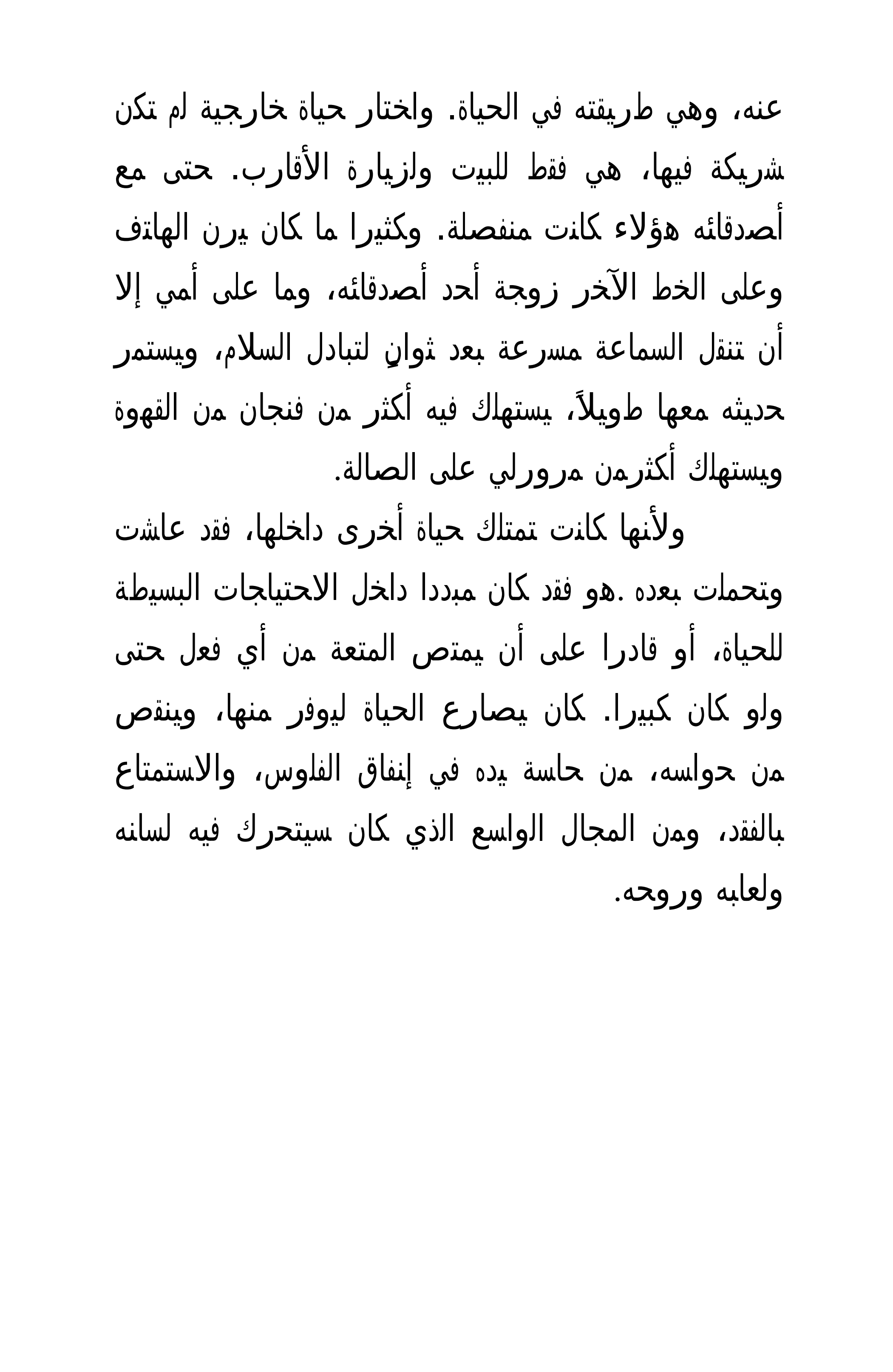
لمدة سنة قد تطول لسنوات، وأني سأجد بيتًا آخر أعوله بمفردي؛ يومها أفاق من مرضه، والذي كان في بدايته، وتحركت بوصلته تجاه قطب الفقد والخسارة، وتحاشى أن ينظر في عيني طوال ثلاثة أيام. لم ينقذه إلا النوم.

لولا أمي، لما سكنت في بيت بحديقة كبيرة وعندما أغادر باب البيت الخشبي، أسير في بيت آخر وإلى باب آخر من الحديد؛ مسافة طويلة. مختلف أن ترى الحديقة من شرفة الطابق الثاني، حيث تسكن جدتي؛ تصغر الأشجار والزائرون وتكبر غرف الجيران. وكان على أبي لكي يعيش في هذا البيت، وكان بناء على طلبه، من أن يحارب الجدران بنياشينها، بطلاء رمادي سيمحو صور لجدي في سراية كبيرة وخلفه ستائر تتحرك في الصورة كأن وراءها هواء سريا. وأن يعلق آيات قرآنية وشهادات في التمثيل، وأن يعلق أيضا لوحات لفنانين مغمورين، وأن لا يستثمر جمال أمي الذي كان معلقًا في الصالة، وبدلاً من أن يضع تحته لمبة خافتة ؛ أخفاه في غرفة جانبية.

كانت للبيت مساءات جميلة، الخميس مثلاً؛ تضاء فيه كل الغرف التي لم نوطن فيها أنفاسنا من قبل، كغرفة السفرة. كانت تقام مآدب كبيرة وشهية لأصدقاء أبي وأقاربه باختلافهم، وجميعهم كانوا طيبين، وكنا نستمتع في حضورهم، وكنت أستمتع أكثر بعد نزولهم في ساعة متأخرة من الليل وأنا وحدي أمام المائدة وفي حضن لعابي أصناف خاصة من الطعام، وعندما كان يغلبني النوم قبل أن يرحلوا ويختموا آخر ضحكة لهم، كنت أنام وأحلم بصباح تتعدد فيه المذاقات. في تلك المآدب، كانت تكثر في بيتنا الملاعق والأطباق والشوك و الكراسي، وتقل في بيت جدتي.

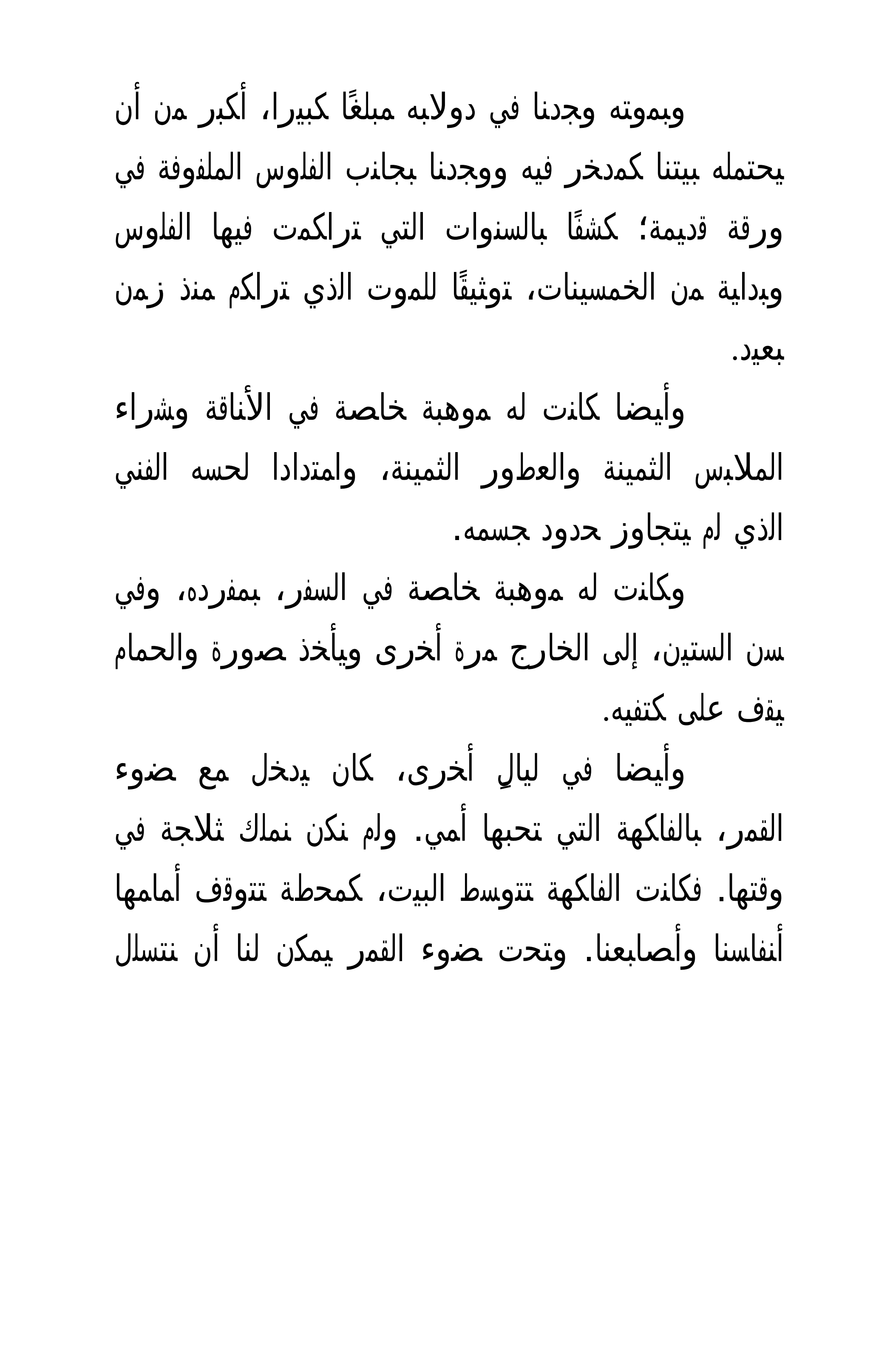
لم تكن إقطاعية أمي مستبدة، ولكنها كقدر أن يكون إنسانًا جميلاً و رحيما ومحبا للبشرلأنه يخفي وراء ظهره مأساة سرية كسرت قلبه وحده، ولم يشأ أن يقتسمها أحد معه، ولكني اقتسمتها معه؛ لذا لن تتكرر.أما مأساته فهي شبكة من التعقيدات التي كانت تدور حوله وليس لها مكان واضح، لذا كانت أكبر من أن يتحملها وحده. كانت المقارنة بينهما دائما تميل إلى كفتها ويظل هو في الكفة الصامتة.

كان يمتلك"دونية" لم تجد لها قناعا سوى الحساسية المفرطة، سوى صفة "الفنان "أو "الأخلاقي".لكي يحمي نفسه. ومحاولة أمي، وأنا معها، لإعادة الميزان إلى وضعه الطبيعي، بالتحمل والصبر والتضحية؛ كل منا بطريقته في التحمل وفي الصبر وفي التضحية. أما هو فلم يجد ما يضحي به، فلجأ إلى انتقامات اجتماعية خفية حتى



عنه، وهي طريقته في الحياة. واختار حياة خارجية لم تكن شريكة فيها، هي فقط للبيت ولزيارة الأقارب. حتى مع أصدقائه هؤلاء كانت منفصلة. وكثيرا ما كان يرن الهاتف وعلى الخط الآخر زوجة أحد أصدقائه، وما على أمي إلا أن تنقل السماعة مسرعة بعد ثوانٍ لتبادل السلام، ويستمر حديثه معها طويلاً، يستهلك فيه أكثر من فنجان من القهوة ويستهلك أكثرمن مروري على الصالة.

ولأنها كانت تمتلك حياة أخرى داخلها، فقد عاشت وتحملت بعده .هو فقد كان مبددا داخل الاحتياجات البسيطة للحياة، أو قادرا على أن يمتص المتعة من أي فعل حتى ولو كان كبيرا. كان يصارع الحياة ليوفر منها، وينقص من حواسه، من حاسة يده في إنفاق الفلوس، والاستمتاع بالفقد، ومن المجال الواسع الذي كان سيتحرك فيه لسانه ولعابه وروحه.


وبموته وجدنا في دولابه مبلغًا كبيرا، أكبر من أن يحتمله بيتنا كمدخر فيه ووجدنا بجانب الفلوس الملفوفة في ورقة قديمة؛ كشفًا بالسنوات التي تراكمت فيها الفلوس وبداية من الخمسينات، توثيقًا للموت الذي تراكم منذ زمن بعيد.

وأيضا كانت له موهبة خاصة في الأناقة وشراء الملابس الثمينة والعطور الثمينة، وامتدادا لحسه الفني الذي لم يتجاوز حدود جسمه.

وكانت له موهبة خاصة في السفر، بمفرده، وفي سن الستين، إلى الخارج مرة أخرى ويأخذ صورة والحمام يقف على كتفيه.

وأيضا في ليالٍ أخرى، كان يدخل مع ضوء القمر، بالفاكهة التي تحبها أمي. ولم نكن نملك ثلاجة في وقتها. فكانت الفاكهة تتوسط البيت، كمحطة تتوقف أمامها أنفاسنا وأصابعنا. وتحت ضوء القمر يمكن لنا أن نتسلل

إلى الصالة ثم إلى الحمام، أو نعود إلى غرفنا، ودون أن نخل بالأثاث الكبير.

وأيضا هناك مصائر عادية للمحبة، لم يفلح في أن يتعلم أحدها بدقة، مثل دقته في إدانة الآخرين إلا في مرضه، إلا بعد موته!

٦٥

دفن أبي بمقابر عائلة أمي في يوم٢١ فبراير ١٩٩٢، وبناء على وصيته التي باح بها لأمي قبل موته بسنوات. عندما أيقن بأي كفة من الميزان هو يقيم.

بموته أصبحت أبا له ولتاريخه. أبوة صنعتها المسافة، ورأسماله يبدأ من عندي ومن تاريخ مضاد. رأسمال أنثره عليه ،الآن ببذخٍ وبدون سيطرة أو أم أو غيرة أو عيد بحذاء يعاد تصليحه. أو تكون كل هذه الأشياء، قد انتقلت معي لمكاني الجديد منه، ولكن بعد أن عادت إلى أصولها كمادة أولية لتفسير المشاعر ومدى ما سأحمله من إرثه. أو البداية منها، ببراءة، لتفسير قبل أن تتعقد الرغبات.

كان أبا لكي أنجز نفسي من خلاله، وكان من الممكن أن لا يحدث هذا أبدا؛ كلحظة تاريخية للأب عندما يهب نفسه وقسوته كنموذج لصالح ابن لن يكون ابنًا أبدا لأنه منذ البداية منفصل ومتعالٍ على وضعه بالصمت، بالحلم، بالمرض، بالخوف، وبحاسة أخرى مجهولة. وهي قدرته على التضحية. لقد ذهبت في صراعي وفي محبتي

مع أبي إلى أقصى، كي أحقق اقصى تمايز يتفق مع قصوري الخاص عن نفسي، والذي خلقت به.

الآن لم أعد ابنًا في أي عقيدة. أصبحت "مسئولاً " عن غرائزي وعن عواطفي، بل تسربت المسئولية إلى العاطفة نفسها والغريزة نفسها. وأي ضحية أخترعها الآن هي ضحية ذاتية بحق، من أجل البناء وليست من أجل التصفية فقط.

ضحية من أجل المستقبل.

٦٧

" ...وأن تمتعنا أثر الموت مع الأحبة في جنات الفردوس بجلائل نعمك وجميل رؤيتك وأن تغفر لنا جميع ذنوبنا بلا عقوبة ولا محنة وأن تؤدي عنا جميع تبعاتنا بمحض فضلك بلا خزي دنيا وآخرة ياذا الفضل والمنة اللهم لك الحمد وإليك المشتكى من أنفسنا ومن عوائق قد عسر معها في هذه الأزمنة الصعبة النجاة.....*"

٦٨

...وأيضا كان مهما في علاقتي بسلوى أن أخلي مكانًا في المستقبل تتحطم فيه العلاقة، مكانًا خاليا منها لأوسع لحريتي معها، ولحريتها معي؛ كآخر مؤقت: وهي سمة الملكية التي كنت أؤمن بها. منتصف في الملكية؛ امتلاك وعدمه فرضهما ايماني والحاجة الماسة لممارسة هذا الإيمان مع أحد والفرح بكلمة"صديقة" وإطالة زمن نطقها سنوات أخرى. مما جعلها تتسرب إلي بهدوء وبدون إلزام، في مكان حر؛ ليس للحب تماما. لقد كانت تراهن على طبقة أخرى من وجودي غير التي أعلنتها، طبقة لم أكن أعرفها واكتشفتها هي بحدسها.

لم يكن قلبي موجها لها مباشره ولكني كنت جاهزا به، بعمق الوجود الذي اكتشفته داخلي، ولكي يضاء كان لابد من أنثى، وطالما عبرت إليه فهي تمتلك شريحة من حاجتي.

المستقبل الذي تخيلته مهجورا منها؟ كان سلاحا اخترعته حاجتي، حتى أوسع من فقدي وهي أيضا لتوسع من فقدها. ولكن الأهم أن لا يستمرطويلاً حتى لا يتميع هذا المستقبل ويتحول إلى حلم يقظة. حتى لا يتحول سلاح التخلي عنها في المستقبل إلى ملاذ لتقبل وجودها الحالي معي كما هو بدون أي تغيير. حتى لا تستهلك الرفض وكلمة الصديقة. فنقلت الخلاف إلى مكان آخر، وقلبي أيضا.

كان التخلي الذي اخترعته حاجتي، لخوفي من الملكية؛ أن لا يستمرأو يكتسب فعاليته إلا في وجود وسيط كسلوى، وسيط يؤمن بقانون الفقد، ويحتمله، ويحافظ على مجال خفي يتحرك فيه حتى لا يهزم. كان "حظي " أن أرتبط بمجال وسعه وسمح به الآخر، للتخلي عنه، لخوفه من أن يفرض روحه على أحد!

٦٩

أثناء علاقتي مع سلوى استبدلت المستقبل الخالي منها بأنثى أخرى. علاقة من أجل ممارسة عملية للقانون. لأني لم أكن أمتلك قانونًا كاملاً للخسارة؛ لم تنتج العلاقة إلا تفاقم الآلام، حتى الرغبة التي تخللتها كانت عمياء، رغبة ليست بين رجل وامرأة، بل بين حاجتين مزمنتين. رغبة سرية لم تنتقل أبعد من الظلام الأولي للجسد.

كان اعترافي بأني متواطئ مع سلوى، كأني أمتلك فراغًا في علاقتي معها، لأن أرضا ليست مستوية تحتنا، ورغبةً لم تأخذ نفس المسار في كل منا. كان اعترافي هو بداية الهزيمة لوعي رومانسي للمتمرد الذي لا يخون أخلاقه، بداية التحول إلى" متمرد خائن " يعيش ويتحرك وسط بشر، ولأنه صدفة أحب صديقة بالرغم من المجهول الذي يتخلل هذا الحب أو الحاجة. المجهول الذي يتراكم داخله أسباب التواطؤ والخديعة بأرض واحدة مستوية. "التواطؤ الحي" هو المجال الذي أجذب إليه الآن كل المراكز البعيدة عن جسدي لأفحصها وأدققها تحت رعاية وتهديد شخص آخر؛ محب.

لست مرهونًا بنقائي، بتصوري عنه، خارجيا أو داخليا، فقد أدخلت العين التي تراقبني أبدا ضمن نسيجي. لذا يمكن أن تتحرك الأوليات الجذرية الخيانة مثلاً.

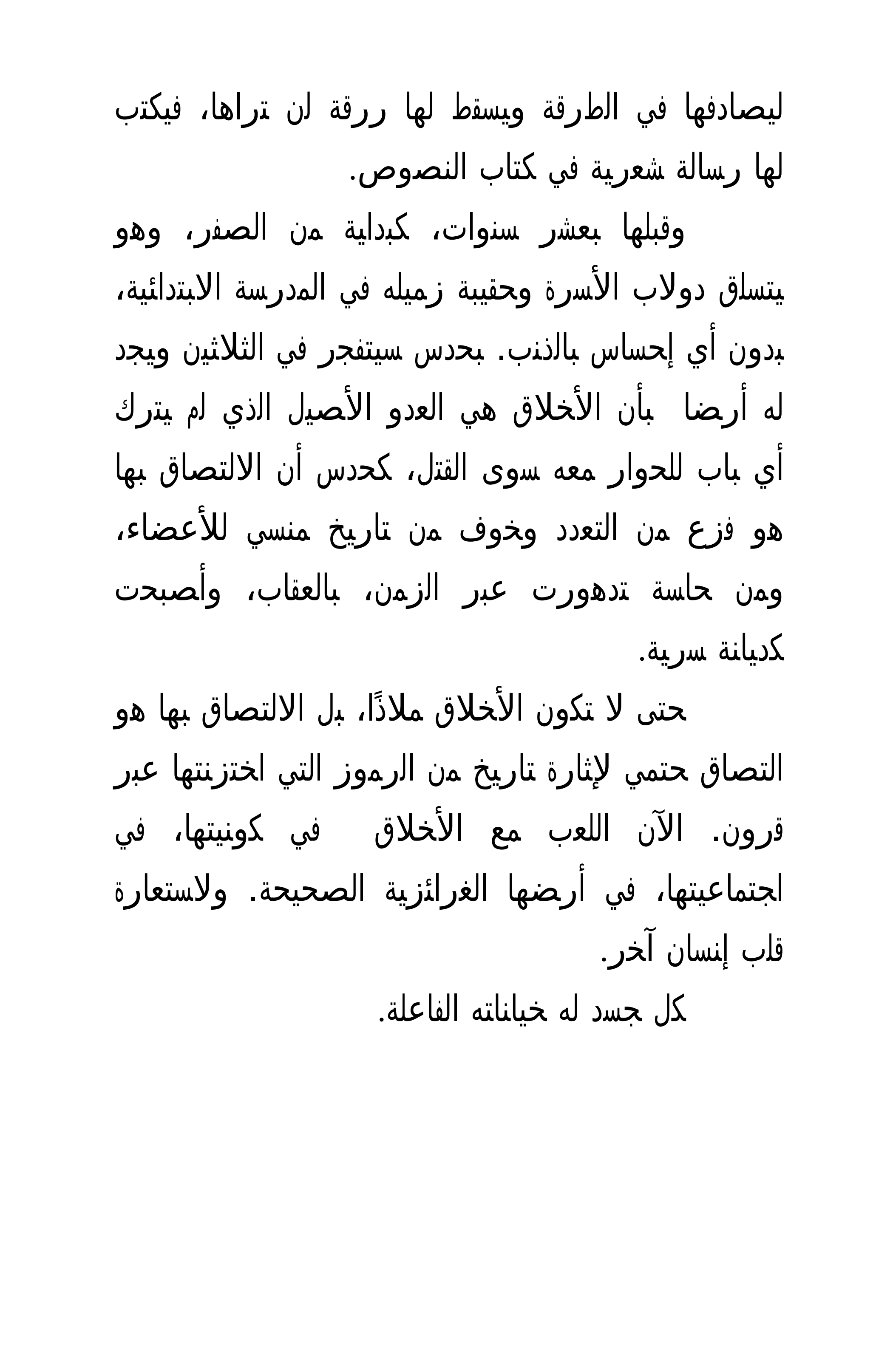
الخيانة التي تخصني ليست كتجربة مشروطة بعدم الخسارة بل كضرورة بدون حساب أو مراقبة تسمح فقط بما يحتاجه الجسم وتغفل ما لا يحتاجه. بل تتسال ومعها كل مفرادتها، خيانة بكل شعبها ومعدومة الصلة بالأخلاق التي ولدتها. لأنها ستكون العضو الجديد اللازم للحاسة المجهولة التي ادخرتها طوال حياتي.

٧١

أخفي الكتب من البائع في الثلاثين، كتبا فوق حاجتي للقراءة وقبلها بخمسة عشر عاما أستعين بصديقين ونستعير مبلغًا كبيرا من النقود من بيت صديقة لنا. بدون رغبة في النقود، لأني في وقتها لم أكن بحاجة ماسة إليها، ربما رغبة في المغامرة. وأصرح بعدها لصديقي بأن قلبي أصبح ميتًا.

وبنفس القلب يذهب لبيت صديقته ويعترف أمام أبويها ويرد كل النقود التي استعارها علي طبق من فضة، بعد أن أنفق منها عشرين جنيها ثمنًا لولاعة أعجبته، وبعد أن أنفق أحد صديقيه عشرة جنيهات مقابل طبق فاخر من الكبدة.

وليخاف حوله مجالاً فارغًا في الشارع وفي صوت البقال عندما يرد تحيته، ليخاف حوله بيوتًا لن يدخلها ويتحرك فيها بحرية بحثًا عن أخت لصديقه.



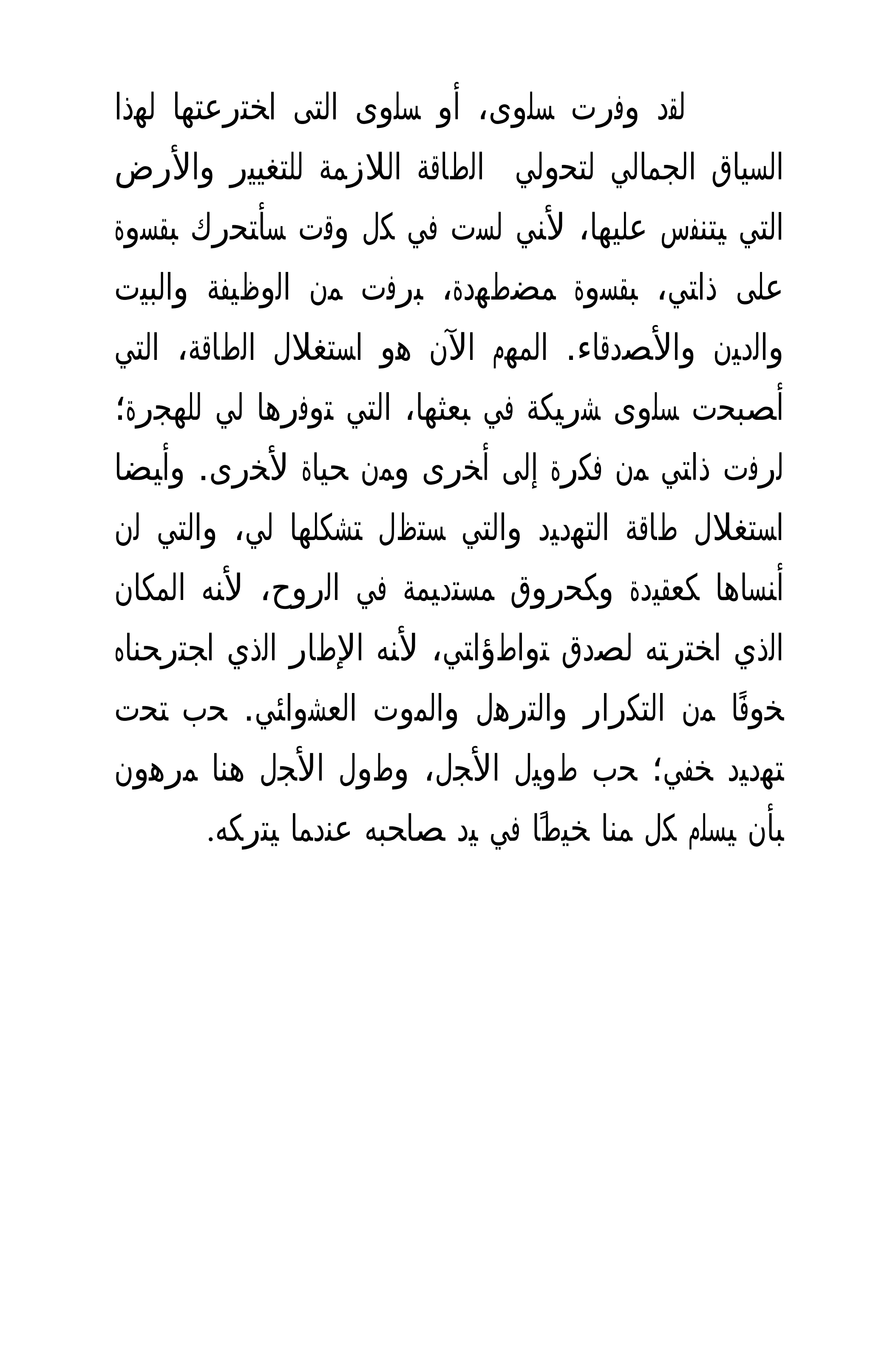
ليصادفها في الطرقة ويسقط لها ررقة لن تراها، فيكتب لها رسالة شعرية في كتاب النصوص.

وقبلها بعشر سنوات، كبداية من الصفر، وهو يتسلق دولاب الأسرة وحقيبة زميله في المدرسة الابتدائية، بدون أي إحساس بالذنب. بحدس سيتفجر في الثلاثين ويجد له أرضا بأن الأخلاق هي العدو الأصيل الذي لم يترك أي باب للحوار معه سوى القتل، كحدس أن الالتصاق بها هو فزع من التعدد وخوف من تاريخ منسي للأعضاء، ومن حاسة تدهورت عبر الزمن، بالعقاب، وأصبحت كديانة سرية.

حتى لا تكون الأخلاق ملاذًا، بل الالتصاق بها هو التصاق حتمي لإثارة تاريخ من الرموز التي اختزنتها عبر قرون. الآن اللعب مع الأخلاق في كونيتها، في اجتماعيتها، في أرضها الغرائزية الصحيحة. ولاستعارة قلب إنسان آخر.

كل جسد له خياناته الفاعلة.

لحب يكتمل أو لا يكتمل. ولكنه الآن يمتلك سطوة بأن يحركني و يعدل غرائزي تبعا لوجود قلب آخر، قد يكن قلبا نوعيا أو محذوفًا منه تبعا بتواريخ أخرى، ولن يبعث كل نظام الغرائز الذي حلمت به، ولكن الآخر الكامل لا يمكن تواجده إلا مع إنسان كامل وعلى أرض رحبة للغريزة لحب يمتلك طاقته بأن يهدم ما عرفته عن نفسي أو يشاركه الوجود بدون أن يقتلني. لقد أوجد مساحة يحدث فيها التغيير، تغيير الجلد. وهي سمة أحبها في أي تغيير؛ أن لا يحدث مباشرة في مقتل المفاهيم والحواس، ولكن خلفها، حتى تجد أرضا تتنفس فيها وهي تبدل جلدها. أرضا رحبة وغير اضطرارية، أو هي ما تُخدع به ذاتي، أنها غير مجبره على التغيير، بل اختارته من عديد بمحض حريتها.


لقد وفرت سلوى، أو سلوى التى اخترعتها لهذا السياق الجمالي لتحولي الطاقة اللازمة للتغيير والأرض التي يتنفس عليها، لأني لست في كل وقت سأتحرك بقسوة على ذاتي، بقسوة مضطهدة، برفت من الوظيفة والبيت والدين والأصدقاء. المهم الآن هو استغلال الطاقة، التي أصبحت سلوى شريكة في بعثها، التي توفرها لي للهجرة؛ لرفت ذاتي من فكرة إلى أخرى ومن حياة لأخرى. وأيضا استغلال طاقة التهديد والتي ستظل تشكلها لي، والتي لن أنساها كعقيدة وكحروق مستديمة في الروح، لأنه المكان الذي اخترته لصدق تواطؤاتي، لأنه الإطار الذي اجترحناه خوفًا من التكرار والترهل والموت العشوائي. حب تحت تهديد خفي؛ حب طويل الأجل، وطول الأجل هنا مرهون بأن يسلم كل منا خيطًا في يد صاحبه عندما يتركه.

والآن، ضمن ما حصلته عن نفسي، لن يبعث تاريخ الأنوثة التي تعنيني، لأنها كانت السياق المغناطيسي لكل الرموز التي اجترحت بها ماديات مؤلمة مع الحياة، كنت في حاجة لأن أحب أحدا وأن أحدا يحبني، بتساوٍ عاطفي كأنه صدفة ضرورية. فسخرت كل طاقات الجسم ورموزه لصالح تلك المعادلة ونسيت سياقات أخرى كتفوقي الدائم في الدراسة وحبي لكرة القدم وموهبتي فيها. لن يبعث تاريخ الأنوثة التي تعنيني والمغفل عنها كمكان، كان ذاتيا، ومن ضمن أماكن أخرى يتحقق داخله اتصال طرفي الجسم لمواجهة حقيقية مع جسم آخر، مع الخارج. ومادام البعث هو أصل الوعي: الرجوع به قبل نقطة البدء، بالكتابة التي اخترتها كصدفة ضرورية؛ لتتحرر مخاوفه من جذورها الأحادية. لن يبعث تاريخ الأنوثة إلا بنفس النوع؛ بأنوثة أكثر قسوة، باكتشاف مشترك، كمكان

جديد من ضمن أماكن أخرى لتلقي وممارسة الحياة. ليس فقط"الهزيمة المنجزة" التي تجعل الجدران والأبواب تتزايد في الطريق.

للحياة التي تكونت قبل أن أعرف نفسي، وعليها أن تمارس بهدوء، بعد أن تعديت الحاجز الذي كانت تطحن وتتألم فيه الذات، والذي عرفته جيدا بالكتابة وبعلانية مستفزة. أنا بعد ذاتي التي أعرفها. بالقرب، بمسافة من الأخلاق التي تكونت ضمن سلطة الرجل، والحرب مع الأب. بالقرب من تضحية أمي، كانت من أجل آخرين فاقدين لموهبة التساوي مع الحياة. ولكني اقتسمت أخلاقيات التضحية مع أمي، وعلي أن أسدد الثمن بعلاقة مجدية معها. بتخل وأي تضحية سابقة هي تخلٍ بدون ثمن، ولكنه الآن تخل من فائض وليس من أجل الرغبة فقط في حفظ البيت من الضياع، في حفظ خيط الود بين الأب وأخي الذي يكبرني مباشرة بسبع سنوات، تخل ليس من أجل الخوف.

لحياة خلف العقاب والخير والشر، حيث كانت تخزن بدون طموح في سلطة ظالمة أو في ذكورة لن تجد لها سياقًا إلا في ارتفاع الصوت وفي تعصب إلى جهة واحدة في الرأي ومائدة الطعام. حتي أنسب جسمي" لكينونته " المعطلة، ليس فقط كمقهور، كمصدر من ضمن مصادر الطاقة؛ بل كفاعل بدائي يتلمس الحياة.

وأي موت سيصادفه هو إضافة لموت أكبر يسري في نسيجه وآمن به: الفقد. وفرة في الموت. وأي أنثى تعتريه لن تتوه، أيا كان نوعها، هي تهديد لأنوثة سلطوية في الخلف ودحض لها وتوسيع لمكانها، والطرق على أبوابها بالرغبة. وأيضا أنسنة للتضحية كأخلاق تلقيتها من البيت، كمصير كان لابد أن أصادفه وأيضا تهذيب للميزان الذي كان دائما خارج العدالة، في علاقات سابقة ونشاطات سابقة ومناهج للتفكير سابقة. المهم أن تتسرب الأنثى ويكون لها نصيب في فطرة الوعي، أن يكون لها خاصية عبور الحواجز: لتشابه واتساق يظل العمود الفقري في أي

محاوله لاكتساب الوعي، بين كل الماضي العبء وبين لحظة الاستنارة، لو كانت حقيقية، أو أصبحت الحواجز متضمنة داخل الوعي، أصبح الماضي جزء حيا من الحاضر، وأمام كل من يحبني، الآن، خريطة جاهزة بالعلامات السوداء بكل خطوط الضعف.

فطرة الوعي التي حاولت أن أستردها كبدائي حديث، في علاقتي مع الحياة، بدون جذور منسية، بل مؤجلة بحب أو أستردها بقدم متساوٍ، بلحظة مستوية بيننا، أنا والحياة. أو هكذا أحلم بها. كنت لابد من أجلها ان أتخلى مؤقتًا عن زمني الخارجي لكي ألتقي بجذوري في أرض بيننا، في زمن بيننا.

سلوى باكتشاف أنوثتها الأكثر قسوة ، لأنها أنوثة صامتة، والتي لن تمنحها لي ببساطة إلا بعد أن أتخلى عن مشاعر ورغبات كثيرة اكتسبتها في سبيل أن أكون مميزا في حق نفسي. تبدأ الآن معي رحلة تكوين العلاقة من أولها، درجة درجة، وتخليا بتخل وترفض أن يكون رصيدها أنوثة عارية، فكانت تحتفظ بها تحت ستار كثيف من الملابس والخجل وتحاشي النظر في عين من يكلمها. الآن تنظر في عين من يكلمها وتستقر فيهما، بدون قصد، لأنها وبدون قصد وجدت مبررا لكي تبوح بجزء من أملاكها الصامتة.

الأملاك الصامتة التي تكونت "بوفرة" من حولها. غرفتين لها ولأختها. ومكتبة لقصص الأطفال باللغة الإنجليزية لكل منهما، ومساء تقرأ لهما الأم، وعندما كانت تغضب من أختها كانت" تعزل" كتبها بعيدا. ملكية ما بعد

"الحاجة"، ومنها صاغت ذاتها، ليس عن طريق الصراع الحيوي، أو آخر يحددها أو للنزاع معه بغير" الغضب"، أو أن لصراعها شكلاً مختلفًا. وصنعت "الملكية" مكانًا لحساسية مفرطة تجاه "حاجة" الآخرين، مكانًا للتضحية الصامتة، وأيضا مكانًا مقدسا للعزلة الداخلية." تناقض " نشأ مع الرحلة، وخلالها تم التباين. بين قطبي العزلة والحساسية المفرطة، وأيضا وتم التنافر في لحظة وجوب اشتراك القطبين معا في علاقة لها أكثر من وجه، لها أكثر من قطب للحياة. وخلال الرحلة لم يتصل القطبان أو يخلقا أرضا يتحلل فيه بعض من هذا"

التناقض "، لولا" الفن " العزلة الرحبة.

وأي آخر غير" الفن " بقدر كتلته سيعيد أنسنة هذه العزلة، والملكية.

ساوى أحد المراكز الهامة للأنوثة التي تعنيني، التي لا تتحقق إلا بعد رحلة من أسفل إلى أعلى، أو العكس؛ أنوثة بطبقات أرضية. ولأن أي اكتشاف للذة

تعنيني لابد أن يعبر من طبقة أولى لها مسامات كبيرة إلى طبقة أقل مسامية وهكذا حتى الوصول إلى طبقة ليس بها أي مسام؛ طبقة لالتصاق.

لأني هكذا اخترعت نفسي.

ومن هنا بدأت الرحلة.

٧٥

الطفولة التي أرحل فيها بالكتابة، ليست فقط كمكان للذكريات او لتصنيف الجانب الذي يمكن أن أحاربه، لا، بل لأنها أنثى قوية وأي علاقة معها وأي إثارة لحاسة من حواسها هي فتح جسر لتبادل. الصفات وتثبيتها. أورجازم آخر للتمرد العشوائي.

الطفولة هي أحد المراكز الهامة للأنوثة التي تعنيني.

خمس سنوات، أثناء الجامعة وبعدها، صديقًا للعميان. للقراءة، للمشاوير البسيطة لرسائل الماجستير، ولصياغة خطابات ركيكة لصديقات لهم. صداقة للعميان للمرور بهم من رصيف إلى رصيف وتنبيههم عند نهاية كل رصيف بلغة صامتة، بلكزة خفيفة في اليد التي تحمل العصا البيضاء. إشارة صامتة يقف وراءها الجسد مباشرة ليحتاط من الفراغ الأسود الكبير الذي يتخيله عند نهاية الرصيف. ولوصف كل رائحة يمرون بها واستحالة الوصف عندما يكون مصدرها فتاة جميلة رائحتها تنبع من طبيعة الجسد ولن أضع في يده كرة دافئة من المعدن ليرى اللون الأحمر. ويفرح في الشارع من أني أقود أعمى! انتقام ذاتي من كل العابرين لعجزهم عن التضحية، ومن تقديم المساعدة لهم. بفرح من شفرة سرية أمتلكها لترويض هذه العاهة.

خمس سنوات، صديقًا ومستغلاً لهم، كنموذج اخترته لنفسي بديلاً عن التحقق بالشهادة، التي تعوض قليلاً الأنثى الغائبة. شهادة سلبية. أن يحتاجك أحد بشدة ويعلق عليك خوفه ولون قميصه وتسريحة شعره واتساق ملابسه، وأن تصف له لون عينيه المطفأتين. ومن كثرة حاجتهم لك سيحبون فيك شفقة ذكورية لا حد لها، شفقة لا يبعثها إلا تباين حاد بين الكفتين؛ كفة عالية وكفة صامتة تماما، ومرور أصابع "علي " على شفرة وجهك ليستطلع الملامح المغشوشة التي أوحى بها صوتك أثناءالقراءة

كانوا بديلاً عن الأنثى التي كنت أحلم بها في هذا الزمن العاطل، وبديلاً عن علاقة طفولية بالدفاع عن مضطهدي البيت، وإشباع لغريزة داخلية فقدت أرضها وبيتها، وبدت مطرودة تبحث عن سكن مؤقت لها. وأول يوم ذهبت إليهم فيه، خرجت من عندهم وكأني امتلكت حلما ظل طويلاً مفقودا، وأحسست بكيمياء مختلفة في

روحي، سأطابقها فيما بعد في علاقة حقيقية مع أنثى حقيقية عندما صرخت بقلبي لها وعيناي في مكان آخر.

ولأني لم أساعدهم حبا في إنسانية لم أكن قد حددت ملامحها بهذا الاتساع: مساعدة كل الآخرين، أو من أجل إصلاح ميزان مختل في الحياة حتى ينتظم هذا الجسد المعطوب بقوة ويتحرك ويرى بحاسة قلبه. لأني ساعدتهم تحت وطأة فتاة جميلة. في وقت تزوجت فيه الفتاة وانخرطت أنا في البذل والتضحية إنقاذًا لي من فشل في حب موازٍ.

ومرة واحدة وبدون مقدمات قطعت كل مساعدة مني لأحد، حتى أسترد أرضا لي ولأساعد نفسي. بث واستقبال داخليين وبصرامة متناهية. عندها لم أكن أملك أي قانون ذاتي للمحبة، المحبة وليس الدفاع عن المضطهدين، فتحركت بأول قانون عرفه البشر ضد نقصان مزدوج: في الخارج والداخل؟ بالقسوة ضد نفسي حتى أفصل من بينها الكرات الفاسدة، لأبتر ما لا يعنيني

وأحتفظ لنفسي بما يعنيني حتي ولو كان فاسدا أو مشوها. وأعود مالكًا عصاميا لنفسي، مالكًا لمستعمرة مخربة، كان علي أن أعيد بناءها فيما بعد. وسيكون من نتيجة الصدام والتغيير والبناء واليأس والفرح، سيتكون وسط أثيري حول الجلد مباشرة، ينتظر من يملأه بإنسانيته، وسيستقبل فيما بعد موجات منخفضة للبث من آخرين.

ولن يعد هناك نظام ذاتي للبث والاستقبال كما كان.

٧٧

"....اللهم لك الحمد وإليك المشتكى من أنفسنا ومن عوائق قد عسر معها في هذه الأزمنة الصعبة النجاه فآمنا يا مولانا في ديننا ودنيانا حال ومآل حتى نفوز بأعظم رضوانك في الحياة وبعد الممات.. يا رحيم يا من ليس معه في تدبير ملكه ثانٍ اللهم اغفر لنا ولآبائنا وأمهاتنا ولأشياخنا وإخواننا وأحبتنا وذرياتنا وأجمع شملنا وشملهم بلا محنة.. *"

كانت كتابتي عن الأب اختراعا لأب جديد، لابد أن يضحي بمشاعر كبيرة من الأب الذي عايشته لابد أن تُحذف منه أعضاء لصالح السياق الجمالي ، شريطي الحياتي العابر بصباحات وموت وأصدقاء وأعضاء منسيه ومدن، لصالح حاسة "النسيان والتذكر" التي أحيت هذا السياق من الموت. مونتاج إنساني للذاكرة لتعيش أقصى وجود لها وأقصى حذف لها.

لقد اكتشفت السينما آلية هامة لجوهر الجمال، آلية تعمل داخلها كل الحواس: المونتاج: النسيان والتذكر، عندما تحارب الذات كل عوامل ضعفها ضمن سياق جمالي شريط سينمائي يتحول فيه التراجع إلى هجوم، وتتحول كل هزيمة غامضة إلى هزيمة تحدس مجتمعها ومحذوفها الاضطراري: ما فرق طاقة التذكر والنسيان: العلامات المستديمة في الروح.

تطوير للأداة لن يخص السينما أو الكتابة وحدهما، ولكن أي إنسان يريد أن يشاهد وجوده خاضعا لسياق جمالي، من أجل أن يتحمله. وكل من يمتلك حاسة تنشيط هذه الأداة سيكون بوجوده كاملاً داخل العملية الإبداعية، مبدعا بالفطرة، لأنه اكتشف بمفرده أول الشريط، "بصدفة ضرورية" بآنية نقدية، وكل لحظة تذكر سيعيشها ليست خالصة للأسى أو الحنين أو الفرح، بل لتوسيع رقعة، فضاء هذا الوجود. بوفرة من حيوات أخرى عبرت ويإبداعها، وفرحه أنه أول مكتشف لحياته وليس أي طبيب نفسي.

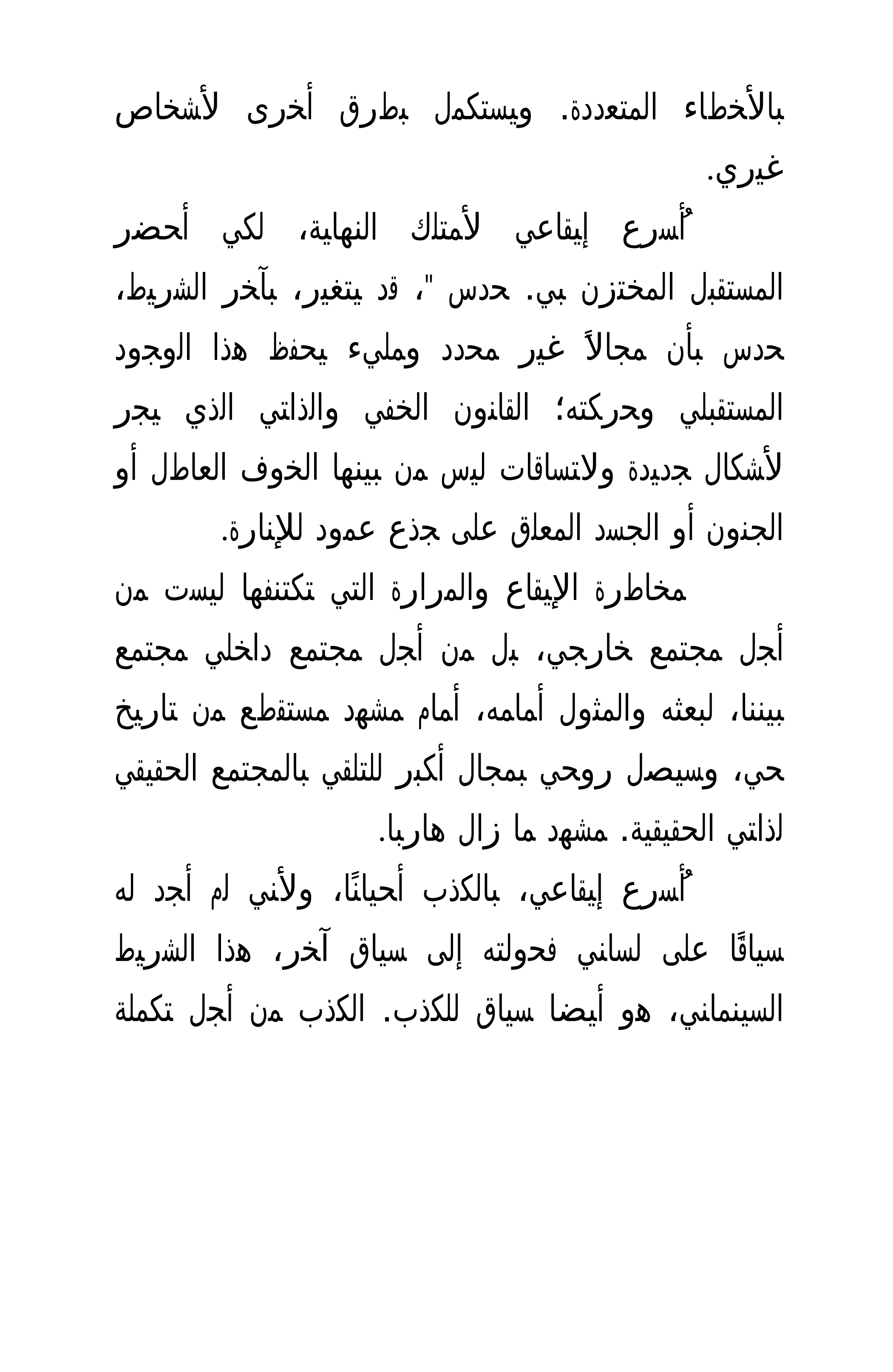
وضمن علاقتي الماضية بأبي، استخدمت تلك اللعبة الحيوية، كي أضعه في سياق جمالي من القسوة، وإن كانت حقيقية! والتي توسع أماكن رحبة للتموضع حولها، لأجد لي مكانًا" عاليا" من الإدانة من أجل أن يقابلها فرحي الصارم بنفسي وبحريتي، كأحد المشاعر الهامة التي كانت توفرها لي إدانة الآخرين.

ولكن المرض جاء مبكرا، أو أني تحركت متأخرا، وقُطع الشريط أثناء عرضه وأظلمت الشاشة، فكان علي أن أفتح مجالاً أوسع للعبة النسيان والتذكر وهدفها من الأب الذي تتذكره، لأوسع لمكاني منه ولكيمياء قلبي. كان علي أن أضيء النور حتى ولو تذمر المشاهدون وأضع أمامهم البكرة الجديدة حتى يفهموا الخدعة التي أحكي بها، خدعة الحب؛ والتي كانت من قبل مخفية عمدا في ظلام الصالة وجلادة الكتاب. وأن أشاهد معهم الفيلم، ولا أحكيه فقط

أنقل جذوري أو أنزعها من مستوى مجهول لها إلى آخر محكي يحييها القرب مني. لتتفكك كتلة هذا الماضي العبء وينشط أهم ما فيه. ومن هنا كانت أهمية الكتابة، حتى أمتلك زمنًا خاصا، زمنًا عابرا ليس هو الطفولة بالضبط ولكن الطفولة أحد معابره، لكي أقف وراء نفسي الأولى و أتحدث بصوت خفيض؛ إيحاء لازم لامتلاك شريط الحياة من أوله.

أُسرع إيقاعي ودائما سيكون شيء مفقود؛ حدث، شخص، موهبة، دقة، ولكن هو اتساق مع قانوني الداخلي، مع المحذوف أصلاً من هذا الوجود الذي سقط.

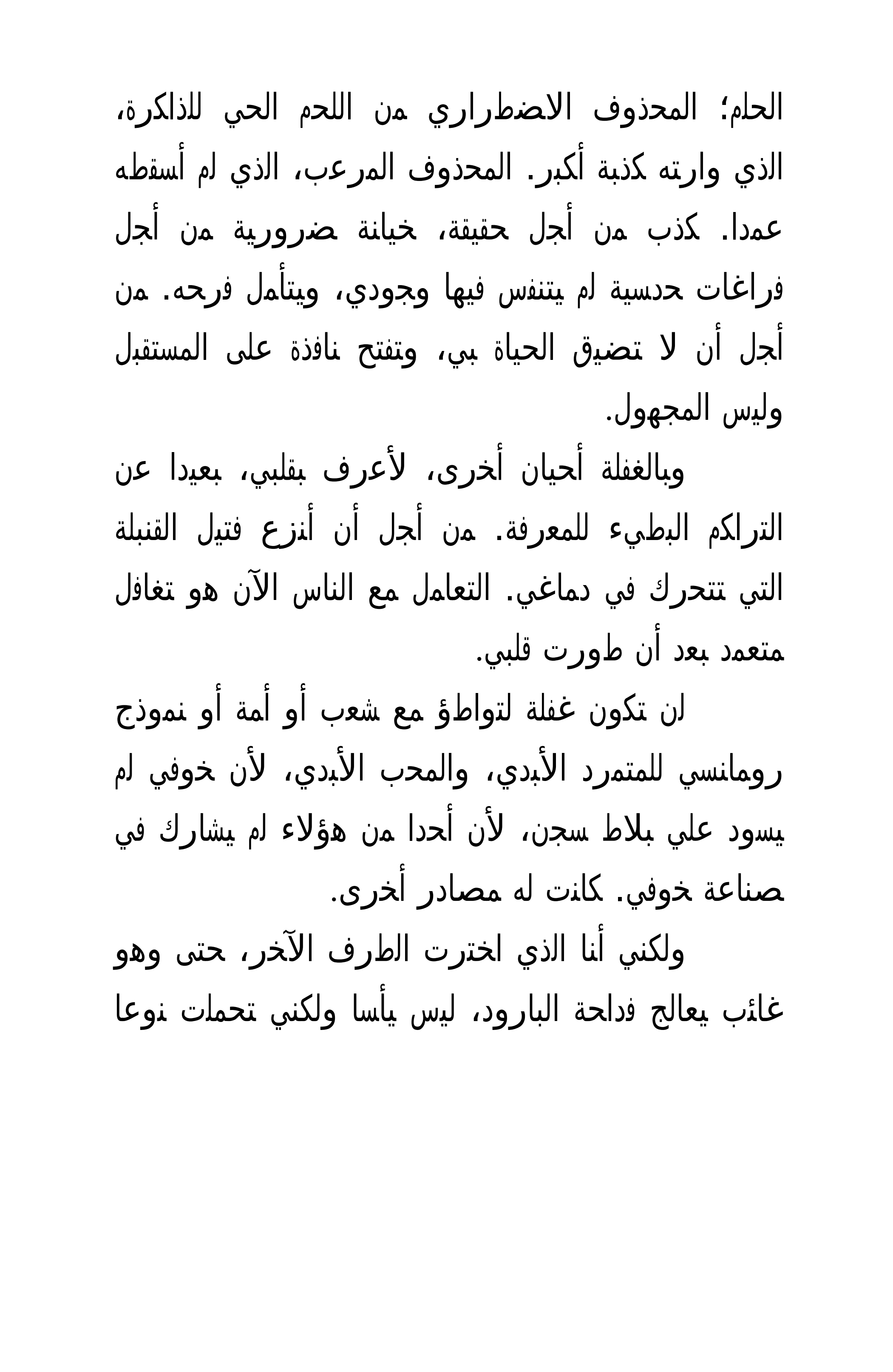
وكما أتواطأ مع الخارج، أيضا أتواطأ مع الداخل، بمعنى لا توجد أرض كاملة للحياة وللشعر وللقاء. هناك محذوف دائم يستكمل بالعجلة، بالكذب، بالمونتاج، بالحلم،


بالأخطاء المتعددة. ويستكمل بطرق أخرى لأشخاص غيري.

أُسرع إيقاعي لأمتلك النهاية، لكي أحضر المستقبل المختزن بي. حدس "، قد يتغير، بآخر الشريط، حدس بأن مجالاً غير محدد ومليء يحفظ هذا الوجود المستقبلي وحركته؛ القانون الخفي والذاتي الذي يجر لأشكال جديدة ولاتساقات ليس من بينها الخوف العاطل أو الجنون أو الجسد المعلق على جذع عمود للإنارة.

مخاطرة الإيقاع والمرارة التي تكتنفها ليست من أجل مجتمع خارجي، بل من أجل مجتمع داخلي مجتمع بيننا، لبعثه والمثول أمامه، أمام مشهد مستقطع من تاريخ حي، وسيصل روحي بمجال أكبر للتلقي بالمجتمع الحقيقي لذاتي الحقيقية. مشهد ما زال هاربا.

أُسرع إيقاعي، بالكذب أحيانًا، ولأني لم أجد له سياقًا على لساني فحولته إلى سياق آخر، هذا الشريط السينماني، هو أيضا سياق للكذب. الكذب من أجل تكملة



الحلم؛ المحذوف الاضطراري من اللحم الحي للذاكرة، الذي وارته كذبة أكبر. المحذوف المرعب، الذي لم أسقطه عمدا. كذب من أجل حقيقة، خيانة ضرورية من أجل فراغات حدسية لم يتنفس فيها وجودي، ويتأمل فرحه. من أجل أن لا تضيق الحياة بي، وتفتح نافذة على المستقبل وليس المجهول.

وبالغفلة أحيان أخرى، لأعرف بقلبي، بعيدا عن التراكم البطيء للمعرفة. من أجل أن أنزع فتيل القنبلة التي تتحرك في دماغي. التعامل مع الناس الآن هو تغافل متعمد بعد أن طورت قلبي.

لن تكون غفلة لتواطؤ مع شعب أو أمة أو نموذج رومانسي للمتمرد الأبدي، والمحب الأبدي، لأن خوفي لم يسود علي بلاط سجن، لأن أحدا من هؤلاء لم يشارك في صناعة خوفي. كانت له مصادر أخرى.

ولكني أنا الذي اخترت الطرف الآخر، حتى وهو غائب يعالج فداحة البارود، ليس يأسا ولكني تحملت نوعا

خاصا، وليس نبيلاً، من الألم بدلاً منه، لأمهد للأرض التي يمكنني أن ألتقي معه فيها.

كنت طوال السنوات السابقة أتحمل عن أشخاص مجهولين وأفكار مجهولة بصحبة مجموعة من الأصدقاء، مجتمعي المستقطع، وأيضا كان تحملي من أجل مجتمع مستقطع آخر؛ وسيط أوسع للبث والاستقبال والدعامة للمثول بكل ثراء أمام المجتمع الداخلي. وكل حجر مشع في روح صديق هو حجر مشع داخلي. مجتمع نوعي غير اللغة يكمل دائرة الوجود من نفس المادة وليس بالتجريد، بكذبة حقيقية، ويفرح أن يعبر وجودي من مكان لآخر، وأيضا تعبر جملتي من أول الفصل إلى آخره ولا أعود أقف وراءها تماما، لأنها لم تعد ملكي تماما.

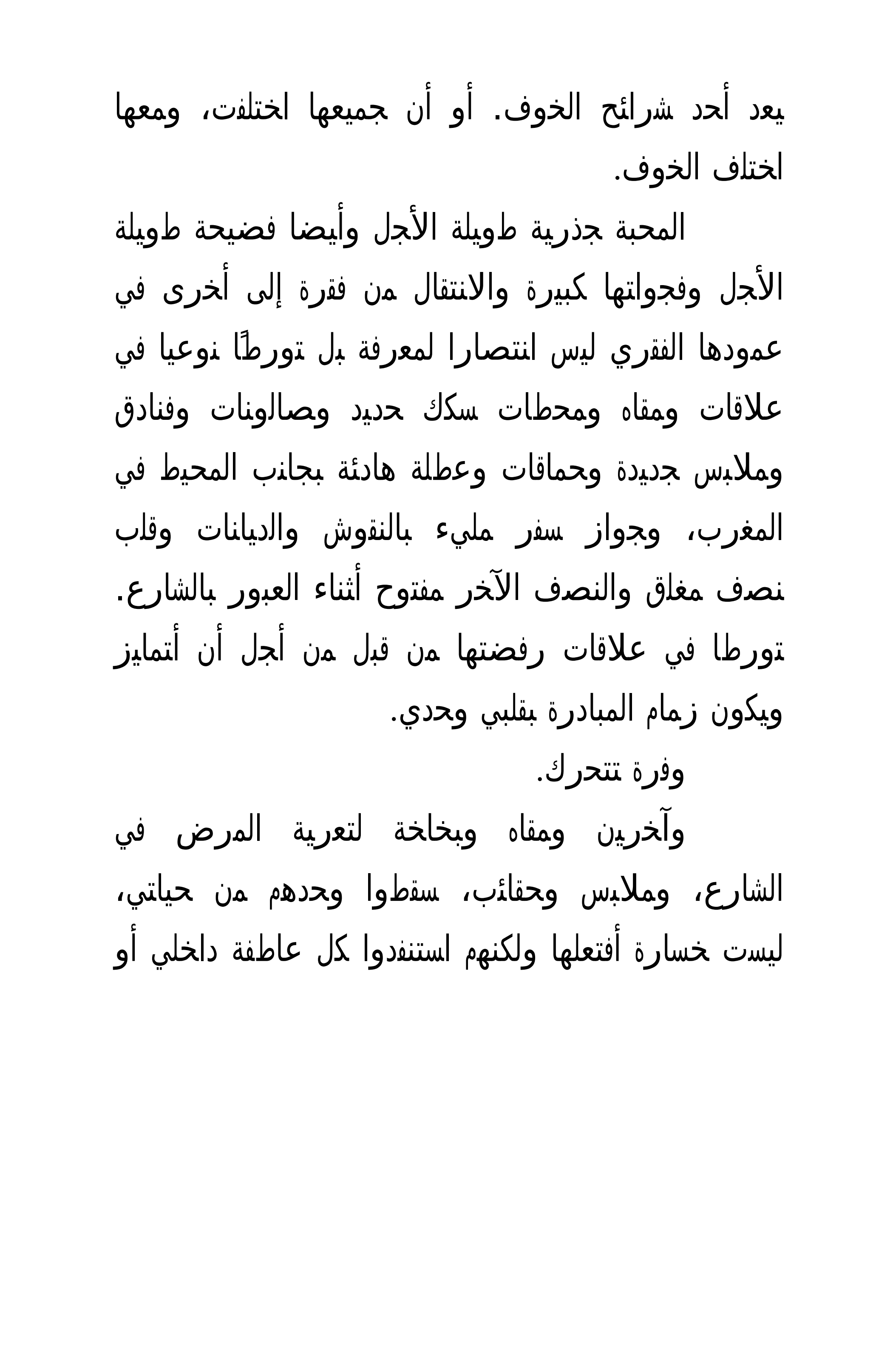
كل محاولة للبحث في الوجود الداخلي المفقود، هي لحظة تحتل أكثر من اللازم، تحمل ما لم يتحمله الآخرون عنك، رأسمال ذاتي في التحمل وهي صيغة الملكية التي كنت أمارسها من قبل بجانب القسوة، الوفرة

الوحيدة، حتي أجد الأرض المستوية، وليست المتكافئة لأن كل منا يمتلك ما لا يمتلكه الآخر. حتى أجد الأرض المستوية التي أحلم بها لعلاقتي معهم، حتى تدخل إلي وفرة جديدة ورأسمال من نوع آخر. وفرة تعطي وتأخذ من فائض عضوي حقيقي. وأي فائض، وفرة لابد وأن يرتبط بدورة من دورات رأس المال، بعاطفة ما له. الحب مثلاً.

رأسمال بشري، ليس من أجل التوسع أو التمايز.

استبدال للأ ماكن بالسفر وللأشخاص با لمحبة.

أحاول أن أحب من استمر معي من أصدقائي وآخرين ما زالوا مجهولين بدلاً من أمي وأبي وأخي، ليكون الحب ليس مكانًا لتخزين الأمراض ولا ثبات قدرتي عليه، بل مكان للتحرر. لأن الغائب الذي يجلبه الحب بيني وبين أي آخر قد تم ضبطه بعمق التواطؤ والأرض المستوية التي أنشدها: الاحتياج المزدوج، ولم يعد مقدسا كاملاً أو نفسيا، كاملاً يحتاج لرحلة أخرى إلى أسفل، ولم



يعد أحد شرائح الخوف. أو أن جميعها اختلفت، ومعها اختلاف الخوف.

المحبة جذرية طويلة الأجل وأيضا فضيحة طويلة الأجل وفجواتها كبيرة والانتقال من فقرة إلى أخرى في عمودها الفقري ليس انتصارا لمعرفة بل تورطًا نوعيا في علاقات ومقاه ومحطات سكك حديد وصالونات وفنادق وملابس جديدة وحماقات وعطلة هادئة بجانب المحيط في المغرب، وجواز سفر مليء بالنقوش والديانات وقلب نصف مغلق والنصف الآخر مفتوح أثناء العبور بالشارع. تورطا في علاقات رفضتها من قبل من أجل أن أتمايز ويكون زمام المبادرة بقلبي وحدي.

وفرة تتحرك.

وآخرين ومقاه وبخاخة لتعرية المرض في الشارع، وملابس وحقائب، سقطوا وحدهم من حياتي، ليست خسارة أفتعلها ولكنهم استنفدوا كل عاطفة داخلي أو

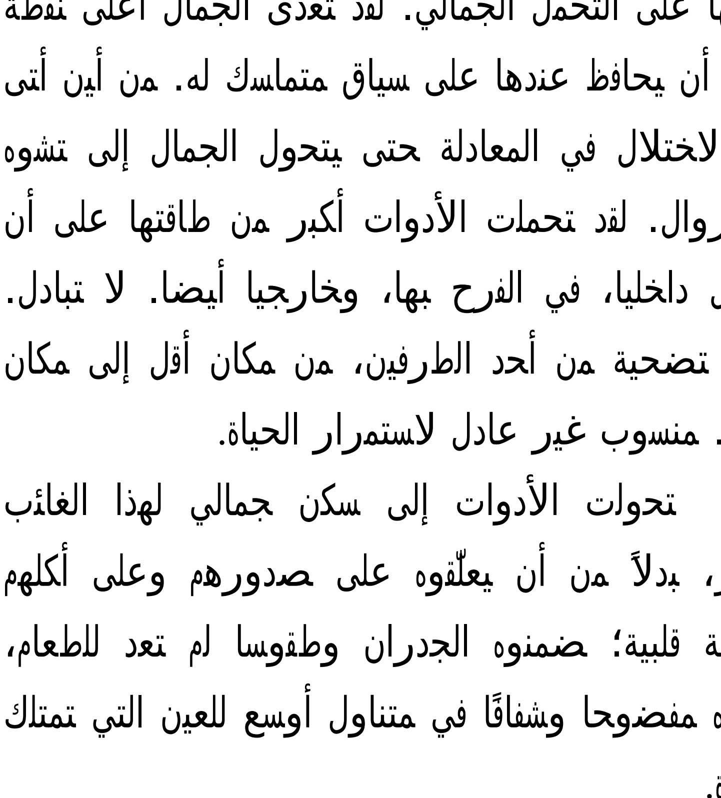
العكس. ومهما حاولت سيكون لي نصيب في هذا السقوط، في هذا الموت العشوائي.

الجسد تشكل خريطته من جديد، ولم يعد هو مصدر أو نص المعرفة الوحيد، أصبح له فضاء سيذيب قليلاً حدوده. كلمة "الجسد" التي كانت حدودا صارمة ضد السلطة وتاريخها ومن قبلها كلمة "الذات " التي كانت حدودا ضد سلطة أكثر اتساعا: المجتمع. بدلاً منهما، في أرض السلطة والمجتمع النوعيين: الجسم والنفس: كمكانين للجهل المتعمد ولعبور العلامات والرموز والعلاقات بدون مراقبة صارمة، على أرض منخفضة تستنزف كل منسوب لها، كل حيوية. وعلي أن أتحمل، من جديد، هذه الحيوية العارية.

٨٠

لقد منحتهم رحلتهم في الصحراء فنونًا مؤقتة من أجل أن تزول وتهدم وأخيرا تباع للأجانب والقادمين من القاهرة. الأواني لأكثر من الطعام والبيت لأكثر من السكن، والظل لأكثر من رؤية الأشياء غير الواضحة، وحساب لكتلة البيت وجدرانه الملونة ليس في توسعها وامتدادها على أرض كبيرة، بل في عمق الحياة التي تحملها، أو التاريخ الذي حلموا فيه بالبيت.

طاقة هائلة من الألوان والزخرفة، هل هي فقط لحاجتهم للمتعة؟ أم استغلت من طرف خارجي وظف الروح في جانب المهارة فقط؛ ليست الألوان من أجل اتساق وتبادل. بهجة معها ومع الطبيعة ولكن لتمجيد غائب شفاف، يمكن أن يتقنع الآن بالآخر القادم الذي أحب هذا الغائب أكثر منهم وأحب تراثهم أكثر منهم.



تحولت الأدوات والملابس والجدران والظل إلى رموز لميتافيزيقا غير مدونة يجب أن يحافظوا عليها لهذا الآخر وليس كمخزن للذكريات ولروح قديمة ومستمرة ولأنها أصبحت رأسمالهم الوحيد فقد تم شحنها بما فوق قدرتها على التحمل الجمالي. لقد تعدى الجمال أعلى نقطة يمكن أن يحافظ عندها على سياق متماسك له. من أين أتى هذا الاختلال في المعادلة حتى يتحول الجمال إلى تشوه إلى زوال. لقد تحملت الأدوات أكبر من طاقتها على أن تستغل داخليا، في الفرح بها، وخارجيا أيضا. لا تبادل. وإنما تضحية من أحد الطرفين، من مكان أقل إلى مكان أعلى. منسوب غير عادل لاستمرار الحياة.

تحولت الأدوات إلى سكن جمالي لهذا الغائب الآخر، بدلاً من أن يعلّقوه على صدورهم وعلى أكلهم كتميمة قلبية؛ ضمنوه الجدران وطقوسا لم تعد للطعام، جعلوه مفضوحا وشفافًا في متناول أوسع للعين التي تمتلك القدرة.

ولم تحفظ لغتهم إرثًا مدونًا لاجتماعية الذات القديمة. شفاهة لا يفهمها غيرهم وانتقلت إلى الأدوات، بدون تاريخ حي. استعادت الأدوات أحد مآسي اللغة: التجريد. تحولت جميعها إلى رموز لغوية محملة بالذاكرة بالجمال بالصمت.

لذا فهي حصن لهم ويغلقونه عن" الأجنبي"، لا يجعلونه يتسلل إليها ويتكلمون بها أمامه للحفاظ على سرية بينهم. الأجنبي الذي أعنيه هو أي غريب لا يعرف هذه اللغة السيوية.

لا يوجد ما يخفي، إلا القليل، فخلف هذه الموانع لايوجد جسد، تفرق الجسد وأصبح شفاهيًا، شفافًا، سطحا من الرموز. أو أن السرية والغموض، وهما سمة أي مجتمع قديم، أصبحا عرفًا تكون لبعدهم، ولقربهم من الآخرين، أكثر من كونهما إنتاجا مرحليا لعمق ثري.

جسد عابر للمجتمع، وأي تطور كما رأيته سيزيد عبوره، سيرقق الجدار الزجاجي الذي يختفون وراءه. سيفرحون لأي طارئ حديث، وهذا أيضا حقهم هل لأنه سيساهم في فكرتهم عن أنفسهم، عن الزوال، استمرارا للرحلة التي قطعوها عبر الصحراء بداية من صحراء الجزائر، ومن صحراء. السودان. الرحلة الآن تحدث في نفس المكان تعويضا عن ثباتهم في أرض واحدة وهو ما لم يتوقعوه وذنبهم في هذا الاستقرار، وهو أيضا من حقهم !

الرحلة الآن عكسية، العالم الآن يسير داخلهم بنفس السرعة التي تحركوا بها في الصحراء، لأنها مقياسهم للإيقاع. وبدلاً من أن يصنعوا هم شتاتهم أصبح العالم: الأجانب، الصعايدة، الموظفون، اللغة العربية، العملات الأجنبية، التليفزيون ؛ هو البديل. رحلة عكسية توحي بالحركة والسفر والعبور، ولكن في نفس المكان. بتخلٍ من طرف واحد، لأن قطبي الميزان مختلفان تماما.

أحدهما يحمل" معيارية" للأخلاق. وليست للتبادل. ولم يكن انتشار "المثلية" أمرا غريبا، هو أيضا رحلة في نفس المكان يفقدون خلالها، لتصفية حدسية الكل منابع الحس والشبق، لتصفية أي رأسمال للجنس قد يفيض بعد ذلك، رأسمال تكون من اجتماعية حقة للجنس ومن ورائه الجسد. حتى لا يبقى، وراءهم، أي مخزون للرغبة لايسهل حمله في الرحلة الأخيرة. حتى لا يبقى وراءهم، أي حائط من الخربشات والرموز الملتهبة وغير المكتملة. حتى لا يبقى أي مدلول غافل، قد يكون في أغنية، قد يتكون حوله أي حلم مستقبلي لهذا الجسد، أو بطاقة الجنس على الحياة؛ لأنه أكثر اجتماعية. أي مدلول قد يوضح كنه هذا الغائب في المستقبل، أو لعلاقةٍ ما معه.

. . .وسنوات أخرى ستمضي وأنا غافل بإرادتي.
سنوات لن تسمي العمر، ولم تمضِ بعد ولكني اكتسبتها. وكل علاقة أقتطعها الآن ليست بها أي خسارة. إحساسي بالخسارة لازمني في البداية، عندما كنت أريد أن أضع نفسي في مكان "المنتصر".

" حجاج" الذي حرص أن يفرض نفسه علي ولو لمرة واحدة، عندما كان مسافرا من سيوة لبلد آخر، استوقفني في الطريق وقال لي بأسى الصباح المبكر" يمكن أنا أقل منك في المقام... بس ابقى افتكرني يا أستاذ". حجاج وكلمته التي يبادرني بها قبل أن يبدأ الحديث "ولو اني حطول عليك يا أستاذ، كان الحديث من البداية، في نظره لا لزوم له. "داود حبون"، حتى ولو كان في نيته أن يستغلني، كما يشيع عنه أهل الواحة وتحذيرهم الدائم لي! ولكن خلال رحلة استغلاله لي دعاني إلى بيته وأجلسني

أمام شباك مليء بالهواء وصنع لي الشاي بنفسه وأجلسني مع أولاده وأطلعني على بعض عاداتهم التي لا يحبها، وترك بناته يتجولن بأصواتهن حولنا، وترك ابنه ليوصلني في تلك الساعة المتأخرة.

"روبيكا" الاسترالية تسير بقدميها الحافيتين وتضع بصرها كله في الأرض، وتترك جسدها ليفاجئ أي شاب أو دجاجة أو حمامة أو فتاة بعباءة ستخرج من زاوية شارع جانبي، تترك جسدها للأسفلت وللاعتذار والابتسام في وجه من سيفاجأ بها، وأيضا لزجاجة عارية. وأثناء مرورها و صندوقها الصغير تحت إبطها؛ تحتفظ لنفسها بشارع آخر لتمر فيه، شارع داخلي يطير شعرها ويتحمل كل هذا الشرود، كل هذا الجمال.

عندما سألته في المقهى هل يوجد بسيوة أغنياء؟ كان سؤالي لغياب أي مظهر من مظاهر الرفاهية، سوى أصحاب محال المشغولات اليدوية؛ قال" لا ، هنا لا توجد رأسمالية". وهكذا كل سؤال كنت أسأله له كان يختار له

مصطلحا من أجلي، من أجل الكاميرا التي كنت أحملها والمشروبات الكثيرة التي كنت أتناولها. لتنضم كلمة" الرأسمالية" مع كلمه" التوازن " الذي يفتقده كما حدثني؛ لتكون قاموسا يسنده أمام أي طارئ مثقف. وأمام مساومات هادئة كان يجريها مع كل غريب، الأجانب خاصة، ليقضوا يوما في مزرعته بجانب عين للمياه يمكن الاستحمام بها مقابل خمسين جنيها للفرد، ومن أجلي جعل المبلغ خمسة وثلاثين جنيها.

"باتينا" السويسرية التي مكثت في الواحة ثماني سنوات في عربة بكرافان، لدراسة الملابس العادات وللكسب من أفواج سياحية تأتي بها إلى الواحة. وأيضا اخترقت الجدار السري للغتهم. وعندما ذكرت اسمها في المقهى أمام بعض السيويين قالوا أنهم لا يتحدثون أمامها عن أية أسرا ر.

" لا تسافر إلا إذا كانت هناك ضرورة لذاك "، لذا كانت هناك ضروره لـ"عيسى الذي ترك السودان إلى

سيوة ليبيع الأعشاب التي تعالج كل الأمراض. أتى من السودان ولم يحمل معه سوى بشرته وحقيبة مليئة بالأعشاب، وأيضا " أدبا صافيا" لم يكن قناعا لاضطهاد مزمن. أتى إلى سيوة ليتكسب واعتقد أنه مهما كان مكسبه فهو قليل بالنسبة لطول المسافة التي قطعها. ليست هوايته الكسب المحض، بل التعامل مع الناس والبيع لهم، والصبر. كنت أراراه لساعات طويلة أمام بضاعته في السوق، بنفس الابتسامة في يده، لا يعد النقود التي يأخذها من الزبون، يضعها في جيبه مباشرة، لأن الغرض من البيع قد تم فعلاً. وفي الفندق يسير بهدوء وعلى كتفيه فوطة الصباح وتفوح منه رائحة معجون الأسنان، ويبتسم بخجل متمتما بتحية الصباح.

"مايك" الاسكتلندي، عندما سألته سؤالاً تقليديا عن رأيه في نفسه أجابني . Completly Confused :لقد دفعني إلى هذا السؤال. قبل زيارته لسيوة زار الأردن ومن قبلها إسرائيل، وقبرص، وهونج كونج، والفلبين. كل

هذه، المسافة قطعها في شهرين. ليست له أي صديقة. والسفر من أجل أن يحصل على سلام داخلي لم يجده في مدينته ووجده في سيوة. لم يحمل طوال رحلته سوى صندل آخر وجرابندية. كان يحدثني وهو لا ينظر إلي، كان الحديث يتحرك منه وإليه، ولم أكن سوى وسيط بشري لعبور القلق، ليصل به طرفي وجوده المتوتر. مع بعض الحركات العصبية من قدميه. وحركته المرضية، التي تكررت كثيرا أثناء حديثنا؛ وهو يمرر كف يده اليمنى على رأسه الحليق، كأنه في كل لحظة يمحو طبقة من الأفكار المهزومة ليستمر.

ويوما قريبا أحسست بأن كل ما بداخلي طاف، وأكبر من تحكمي فيه. لم أقدر على الاستمرار في مقعدي في المقهى، فتركت الحساب سريعا "لفرج "، وقمت متوجها إلى أقرب تاكسي، وتحدثت مع السائق كثيرا. كنت ملتصقًا بنفسي وطارحا عليها كل طموحات الجنون. ورأتني فتاة ناضحا بدموعي وأنا أعبر الشارع إلى بيت سلوى. وأول

ما فعلته عندما دخلت البيت أني طلبت منها طعاما وفيرا، حتى يذكرني الطعام بإنسانيتي، بأول قاعدة لم تنتهك للحاجة.

إبراهيم، إن أهم ما فعلته في رأيي، أنك كتبت "سيرة" جديدة لعائلتك. كتبتها بتضحية طويلة الأجل، بخمسة عشر عاما بعيدا عنهم. كان الطرف الآخر غائبا أو كان آخرا كبيرا لعائلة. أكبر من أن تتحمله ذاتك، ونزواتها في أن تنتظر استجابة تخصها، ولو كانت بسيطة. تصحبة لم تكن تملك غيرها في مثل هذا السن وميل هذا التاريخ. لم توفر لك الأرواح الكثيرة التي شغلت روحك أي فراغ للاختيار الدا خلي، سوى " مدار الحزن."

لم يكن عملاً أدبيا، كما هو متعارف عليه، بل نحتًا لمكان آخر، لنقد هذا التاريخ لتصفي لك مكانًا خارجه. كان تماسا فاجعا بين مكانين لم يكتملا داخلك.

وأيضا لأن الكتابة التي اخترتها لم تكن نقية تماما، تبعا للمكان الجديد الذي تمنيته في علاقتك بنفسك وبمن

حوارك والذي لخصته لي في أحد المساءات الطويلة بأنك تريد أن تحتضن ميتًا، لقد احتضنت أنا الميت ولم يسقط كل الخوف مرة واحدة.

لأن السلاح الذي اخترته كان ملوثًا بكل التواريخ القديمة وبكل تقنياتها. كان يمكن أن ينطلق هذا العمل كمدار كامل لحرية الروح.

لولا التوقيت،

لولا أن حدة النصل لم تكن هي المواتية لتاريخ بهذا الشكل وبهذه الضروريات وبهذا التشابك ، كان يحتاج لسلاح بنصف نصل، لكتابة متغافلة قليلاً.

ولولا أن الأبواب المغلقة كانت، أصلاً، كثيرة.
هل "هناك " سيرة أخري، تحب فيها نفسك أكثر من هذا؟ أتمني. ولكنه أمتعني. كان "مدار الحزن " بالنسبة لي هو المدخل الحقيقي" لماهية" الكتابة عبر إنسان أعرفه.

الآن يمكن أن أكون مسئولاً عن ضعف أصيل بداخلك، ضعف تجاوز الغريزة بمراحل، وتجاوز الطفولة، وأصبح شفرة للاتصال بيننا.

محمد المزررعي الشباك الذي فتحته في غرفتي، ذات صباحٍ؛ ما زال مفتوحا حتى الآن.

الطبقة؛ الجرح العاري

وأخي الأكبر هشام، الدكتور هشام. الذي يكبرني بتسع سنوات، وأنه كان يخبئ عن صدري الدواء، وعندما أمد يدي تحت مخدته في السرير المواجه كان يضيء النور على يدي. وأيضا في سنة تعيينه في سلك القضاء، كان في نفس الوقت الذي بدأ يتكون حولي مجال فارغ في الشارع وفي صوت البقال عندما يرد علي السلام. وأنه ساهم في نقل المجال الفارغ من الشارع إلى البيت، وظللنا متخاصمين سنة طويلة. وأيضا خلط المكتبة الأجنبية لأبي برواية" عودة الروح" والتي أغراني بأن أتنازل عن جزء هام من" عيديتي" لأشترك معه في شرائها، وطبعا وا فقت.

حسين بلال، كنت أول من دلّني علي نقطة متقدمة في نفسي. عندما جئت إليك أشكو قلة حيلتي، كذلك أشكو من قسوة "علا ". أخبرتني عندها بأن أثق في نفسي أكثر، وأيضا في ممتلكاتي الطبيعية وحددتها لي، وكانت حينئذ هي موهبتي في الإنصات للآخرين وارتياحهم في الحديث معي، وخاصة أنت. الإنصات لمغامراتك التي لا تنتهي مع الفتيات. واحدة منهن، وكانت صديقتك عن حب، أوصيتها بأن تتحدث معي برفق لتفهمني معني" قلب المرأة ". عندما تناولت مجموعة كبيرة من الأقراص، ولكنك فهمت اللعبة سريعا وكشفت عن سري. وأيضا اتفقت معك في تحليلك، بأن أخفضت عيني أمامك. اتفقت معك بصمت علي الآخر وأيضا اسمه؛ الهدف من هذه المحاولة اليائسة للاتصال. واكتشفت ما هو أكثر من ذلك: الدافع الغريزي وراء أي محاولة للتدمير أمام الناس. حسين، أنت أول صديق نوعي أصادفه. وأول متمرد حقيقي حتى سن الثلاثين.

مجاهد، الدموع لا تموت في بئر المرايا. والذي اكتسب حاسة خاصة يستشعر بها وسامتي في المرايا المعكوسة للمقاهي والبارات. ولا يخطئها أبدا في كل اللحظات التي أكون فيها منتصرا بحب علي وعلى الهواء وأتقبل فيها جرعات البيرة بدون انتظام. ومرة خرجنا من المقهى في الثامنة صباحا ليفاجئنا كلب بقدم غائبة. لم يلفت نظره. لو مررنا بنفس الكلب مرة أخرى، قد يتغير كل الكلام الذي حدثته به بعد ذلك.

أبي، لو كنت حكيت لنا عن مأساتك وأنت صغير، عن أبيك الذي ترك أمك وأخفيت سره علينا، وجعلته ميتًا في حديثك عنه. وأيضا رتبت كل عواطفي بأنك بدون أب ولم يعد يفلح معرفة السر الآن، لقد عرفته صدفة بعد موتك. وكنت دائما أعقد حسبة أوازن فيها بين موته وولادتك تبعا لأنك لم تره. كنت أتخيل أنه مات وأمك حامل بك، وأتخيل نقطة بعيدة تفترقان فيها لكي أصدق تلك المفارقة الغريبة؛ أن يموت أب في الثلاثين بدون مرض

كأنه كان ينتظر موادك ليموت. فكرت في هذا ليالٍ طويلة. ومن هذه النقطة البعيدة التي لم أجد أرضا لتحملها إلا في التأمل المحض! تحركت مشاعري ووراءها جيش من الغموض. لو عريت لنا جدارك وبدلا من أن ننطح عليه رؤوسنا ونعريه عنوة، كنا تعاطفنا معه ومع صوتك ومع قسوتك، لكنا رأينا شموسا صغيرة ودافئة لاشك في أنها كانت تنتظر خلفه، ولكنا أشركناها في اللعب معنا ورفعناها عاليا.

يسرية، اطلع الصاغة على خجل يديها كآخر تضحية مادية من أجل استمرار الأسرة. يسرية لم تعرف أني كنت أراها من الفصل وقبل أن أصل لباب المدرسة وقبل أن تشير لي بأصابعها.، يسرية كخسارة لابد منها، ذراع لن أبترها لأنها لم تخرج مني، بل من مأساة كبيرة. لا أملك سوى الأصابع. ولو كنت أفهم في الموت جيدا، فلن يأتيها الموت بعد أن تسبقه علاماته المعتادة: كرمشة اليد والتفافها كورقة شجر جافة.

ستموت أمي عندما تتحقق وفرتي: المال، الزواج،.... لأنها ستفقد أهمية حياة كانت معلقة بحاجتي إليها، وبتضحية اقتسمناها سويا ولم يعد لها مبرر الآن. أي وفرة أحققها هي إزاحة لحياة سابقة كانت مرتبطة بالحاجة فقط، وبالحب لأني الوحيد من دون أخوي كنت " الحنين ". أي وفرة أحققها هي مكاني لتحقيق استقلال: المرأة، المال، الهواء، الأصدقاء؛ الأحبال الخفية مع مشيمة مطلقات أخرى أقل قدسية. وبالتفهم أيضا فلقد بدأ حواري معها قريبا جدا وأتعمد الآن أن أتناول طعام الغداء مبكرا، في الثانية ظهرا، لأكون شاغرا للكرسي الخالي، ولنتبادل بعض الأحاديث البسيطة عن الدنيـا.

الإسكند رية

فجرالسبت ٢٠-٨-١٩٩٤